

الأصول الرومانسية في الشعر الجاهلي

(شعر التأمل)

أ.م.د حسن دخيل الطائي
كلية التربية - صفي الدين الحلي

المقدمة

عُرِفَ عن الشعر الجاهلي، بأنه شعر واقعي، غني بتصوير الواقع في العصر الجاهلي، وما يضطرب به هذا الواقع، من أحداث وصراعات؛ فقد كُرسَ معظم هذا الشعر، للدود عن القبيلة، وإلى نشر مفاخرها، والتغني بانتصاراتها، علاوة على تناوله بعض جوانب الحياة الاجتماعية، مثل تصويره لبعض أنماط معيشة الناس في تلك الحقبة، التي اتسمت بضنك العيش، وسوء الأحوال المعيشية بسبب قلة الموارد في تلك البيئة الصحراوية، فكان الجوع يضرب أطناً في طول الصحراء وعرضها، وضاق الناس به ذرعاً، ونجم عن ذلك ظواهر اجتماعية مدانة، منها وأد البنات، والسلب، والنهب بين القبائل لكل ما تطالعه أيديهم في أثناء الغزوات التي دارت بينهم في ذلك العصر، فضلاً عما قام به الصعاليك، من أعمال السطو، والنهب، واعتراض سبيل القوافل، وسرقة ما يمكن سرقة، ونجد ذلك واضحاً في شعر الصعاليك؛ وفي ضوء ما تقدم كان الشعر الجاهلي، صورة صادقة لمجتمع، وكاد يكون وثيقة تاريخية، تحكي حقيقة ذلك المجتمع، وكانت شخصية الشاعر تذوب في إطار الجماعة، وهو يتناول هذه الموضوعات غير أن تلك الأوضاع المزرية من حروب، وقتل، واضطراب كان فيها الإنسان لا يأمن على نفسه، ولا على ماله، في مجتمع يعاني من الفقر المدقع الذي يصل في كثير من السنين إلى درجة المجاعة، علاوة على ما تبعته هذه الصحراء القاحلة الممجة الممتدة على طول البصر، من وحشة، وخوف في نفوس أبناء الذين لا يعرفون ما تخبئه لهم، فضلاً على ما يلقيها من غموض؛ ذلك كله جعل طائفة من شعراء العصر الجاهلي، تصطبغ نفوسهم بالحزن، وتستولي عليها الكآبة، وكان ذلك سبباً في ظهور هذا الضرب من الشعر، وهذا ما جعل الشاعر الجاهلي يخصص جزءاً من شعره؛ ليُعبرَ عن همومه الذاتية، وعما تختلج به نفسه من مشاعر وأحاسيس نحو الحياة والموت، والطبيعة، فجاء هذا الشعر ذاتياً بكل ما تحمله هذه الكلمة؛ فقد سجل فيه الشاعر الجاهلي ما يخطر على باله، من مشاعر وأحاسيس نحو النفس الإنسانية، والوجود. وهو يختلف عن الشعر الواقعي الذي غني بالحديث عن السيوف، والخيول، والكرّ والفرّ، وما ينجم عن هذه الحروب من مأس، وويلات، وما يحرز من انتصارات، أو ما يقوم به الصعلوك، من مغامرات، وجبل من أجل أن ينتزع لقمة عيشه. وتناول البحث أبرز الموضوعات التي دار عليها هذا اللون من الشعر، وهي التأمل في الحياة والموت، والخير والشر، والشباب والمشيبي، والطبيعة؛ فقد حاول هؤلاء الشعراء التعمق في أسرار هذه الموضوعات، ومعرفة أسرارها، وكنهها، غير أنهم رجعوا ناكسين، فلم يقفوا إلا عند ظواهرها، فلم يشفوا غلة نفوسهم الظمأ لمعرفة المجهول، فظل الموت شبحاً يلاحقهم، اضطربهم في النهاية إلى الاستسلام لإرادته، والتسليم بما تكتبه لهم الأقدار، وكذلك في الموضوعات الأخرى وقف الشاعر الجاهلي عند حدود ما اكتسبه من الحياة، في أثناء تجربته التي عاش فيها، فعلى مثل هذه الظواهر بما يمتلكه من تجربة، وما توافر له من ثقافة ومعتقدات، لذلك أطلقنا على هذا الضرب من الشعر: الأصول الأولى للاتجاه الرومانسي، ولم نقل الاتجاه الرومانسي؛ لأن الشاعر الجاهلي، لم يتعمق في الأشياء، ولم يُعبرَ عن مشاعر، وأحاسيس، وعواطف تتسم بالنضج، كما كان يفعل الشاعر الرومانسي في العصر الحديث، يُزاد على ذلك أن هذا الشعر يشبه الشعر الرومانسي في كون صاحبه يعنى بالتغني بالأمه، وأحزانه، ويُعبرَ عما يعانيه من اضطراب، وقلق، ويأس في هذه الحياة، فضلاً عن أن بعض الشعراء، سجلوا سبقاً في الميدان الرومانسي، فمن الشعراء من وقف على القبور، وسجل خواطره مثل عدي بن زيد العبادي، وهو بعمله هذا سبق شعراء مدرسة القبور البريطانية الحديثة الذين كانوا يقفون ليلاً في المقبرة، ويسجلون خواطرهم، كذلك نظم بعض الشعراء في العصر الجاهلي خواطرهم، ومشاعرهم بقصيدة ذات أداء قصصي صوّروا فيها مشاعرهم نحو الحياة والموت، وما يلاقيه الإنسان في الحياة الأخرى بقصائد ذات نزعة خيالية زاهرة بمشاعر الخوف، والرغبة، والقلق، مثل أمية بن أبي الصلت. وبهذا يكون هؤلاء الشعراء قد سبقوا شعراء الرومانسية الحديثة الذين نظموا كثيراً من مشاعرهم، في قصائد تشبه شعر الأقصوصة، ويُعد ذلك واضحاً في شعر جماعة الديوان، وأبولو. وظهر هذا الاتجاه الرومانسي، جلياً، في الخيال، فقد جاء أصحابه، بصور شعرية، تُثير التأمل، وتبعث مشاعر وعواطف شتى، في نفوس مُتلقيها، ولا تحفل هذه الصور الفنية بالتشبيهات الجسدية، أو المادية، بل تُعنى بالتشبيه الذي يستطيع الشاعر، أن ينقل إلى المُتلقي، خلاصة ما استودع في ذهنه من مشاعر، وعواطف، لا أن يتسابق في ميدان الألوان، والأحجام، والأشكال، فإن مثل هذه الصور التي تحفل بالمحسوسات، يتساوى فيها الشاعر، مع خيال الإنسان العادي، وإن مثل هذه الآراء في الخيال، دعا إليها الرومانسيون المُحدثون، ووجدناها مُجسدة في شعر هؤلاء الشعراء في العصر الجاهلي، فصوّروا هم الشعرية زاهرة بالمشاعر والعواطف. وخلاصة ما أريد قوله، أن هذا البحث يُسلط الضوء على هذا الاتجاه الشعري الوليد، الذي لم يبلغ مرحلة النضج، غير أنه يكتسب أهمية، في كونه بداية رائدة لمدرسة شعرية أصبح لها شأن في العصر الحديث، وكان له الفضل في إغناء تجربة الشعراء العرب الرومانسيين، علاوة على أن هذا الاتجاه عمل على التمهيد لنشوء شعر الغزل العذري، وشعر الزهد، والشعر الصوفي، وغيره من أنواع الشعر ذات الاتجاه الذاتي، الذي يُعنى بتصوير المشاعر والعواطف.

الشعرُ التأملي

نظم الشاعر الجاهليُّ شعراً تأملياً^(١)، يُشبهُ في كثير من الأحيان الشعرَ الذي نظمهُ الرومانسيون في موضوعات التأمل في الطبيعة، ومظاهر الكون، والحياة والموت، والنفس الإنسانية، وحاول أن يتعمق في جوهر الأشياء، لعلَّه يدركُ كنهها، ويعرف أسرارها، ليُشبعَ نهمه من معرفة خفايا الكون، وليحلَّ رموز الغموض التي تحيطُ بعالمه الذي يعيش فيه؛ لأنَّ مثل تلك المشاعر التي يحسُّ بها الشاعر الجاهلي كانت سبباً في تشاؤمه وخُزنيه وقَلْبِهِ في هذه الحياة، وكذلك فإنَّ مبعثَ القلق عند الشاعر الجاهلي، وجُوده في بيئة صحراوية مترامية الأطراف يلفُّها الغموض، إذ يمتد فيها بصر الإنسان مسافات طويلة من دون أن يعرف ما وراء تلك البحار الرملية، بل المحيطات، من أمواج الرمال التي تُكوِّن الصحراء وما تتطوي عليه من أشياء؛ فإنَّ مثل هذا المنظر يبعثُ الخوف في نفس الشاعر الجاهلي؛ لما تُخبئه هذه المناهات السحيقة من أسرار وخفايا، ممَّا جعل هذه الصحراء لا تخلو من وحشة ((فإنَّ العربي لم يبرأ من الشعور بوحشتها ورهبتها، ممَّا جعله يتصورُ فيها ما لا أصلَ له، ويتخيَّل فيها ما لا حقيقة له، فاعتقد أنها مسكن الجن، ويرى شخصاً الغيلان))^(٢)، ويمكننا أن نلمس ما قلناه في بيت الشاعر الأعشى، وهو يصفُ الصحراء:

وبلدةٍ مثلِ ظُهرِ الثُرسِ موحِشةٍ
لا يتمنى لها بالقيظ يركبها
للجنِّ بالليل في حافاتها زجلٌ
إلا الذين لهم فيما أتوا مهلٌ^(٣)

ويبدو واضحاً أنَّه ((شبه الصحراء بظهر الدرع في انبساطها، وإقارها؛ لأنَّها لا شيء فوق ظهرها... جربت أرضها وعريت صفحتها، تسمع للجنِّ بها أصواتاً وجلجلة، وهو أخوف ما يخشاه قاطع الصحراء أو يتخيَّله، إذا تفرَّد فيها، وإنَّ هذه الصحراء المنبسطة، واللاهبة، لا يسمو إلى ركوبها، إلا الذين لهم فيما أتوا عُدَّة، وقوَّة، لشدَّتها، وامتلكوا الهداية والمعرفة بدروبها، وشعابها))^(٤)، وممَّا زاد من خشية الشاعر الجاهلي، أنَّ هذه الصحراء قاسية على قاطنِها بكلِّ شيء، في مناخها الذي تضطرب فيه درجات الحرارة بين الليل والنهار، فتلسعهم ببردها القارص ليلاً، ويلفح وجوههم لهيبُ حرِّها الوهاج، يُضاف على أنَّها قاحلة مُمحلة، وقليلة الموارد. وفي كثير من السنين، تحلُّ بأهلها المجاعة، وبخاصة عندما لا تجود السماء عليهم بالمطر الوافر، الذي يؤمِّن لهم العشب الذي ترعاه أنعامهم، فيصيبهم الجذب والقحط، وتنزل بهم وبإبلهم المهالك، والمأسي، وتنسف أمالهم البسيطة على حين غرة، وتجعل أهل الصحراء يلاقون مصيرهم المحتوم وجهاً لوجه في هذه الصحراء التي ليس فيها شيء يُعينهم على تجاوز محنتهم.

ونجم عن قسوة هذه الحياة أن نفشت في مجتمعاتهم ظواهر مُدانة مثل اللصوصية، والصعلكة، وقُطَاع الطُرُق، والسلب والنهب، والحروب، والغزوات التي تنشأ بين القبائل حين تتخاصم على مناطق النفوذ، أو منابع المياه، أو بسبب العادات القبلية كالنار أو الرهان، أو عقر ناقة. ويُمكننا أن ندرك ما كانت تفعُّله الحرب من مأس وويلات، في قصيدة زهير بن أبي سلمى إذ يقول في حرب داحس والغبراء التي اندلعت لسبب تافه، وهو رهان حول سباق الخيل، وذهب ضحيَّتها خلقٌ كثير، يقول:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وما هو عنها بالحديث المُرجم
وتضر إذا ضرَّيتموها فتضرم
وتلقح كشافاً ثم تلج فتلج
فتعركم عرك الرحي بئفاله

ويبدو واضحاً من هذه الأبيات حجمُ المعاناة التي كان يُقاسيها المجتمع الجاهلي، من جرَّاء هذه الحروب العبيَّة، التي أرقتهم، وقصَّت مضاجعهم، وخيبت آمالهم، وأشاعت بينهم حالة من التشاؤم والحزن. كلُّ ما تقدَّم جعل الشاعر الجاهلي يزداد خشية من هذه البيئة الصحراوية الموحِشة، والمحفوفة بالمخاطر، فخفق قلبه خوفاً، فراح يُجِيل النظر في حياته ويتأملها بتأملات بسيطة، تحكي طبيعة بيئته الصحراوية، التي تتسم بالانبساط والوضوح وامتداد البصر في أرجائها، وانكشاف معالمها، لذلك نجد أنَّ تأملاته تقف عند ظواهر الأشياء، ولا تتعمق في جوهرها كثيراً، ولا تستبطن مكانها، ومن هذه التأملات التي عبَّرَ من خلالها الشاعر الجاهلي عن قَلْبِهِ واضطرابه، وما يلفُ نفسه من حُزن، وكآبة، وانكسار نفسي، حين يرى حياته لا تستقرُّ على حال، ولا يستطيع أن يأمن جانبها، ممَّا دفعه ذلك أن يصبَّ جام غضبه على الدهر، ورأه خووناً غادراً، وسببَ آلامه، وإنَّ مثل هذه الموضوعات التي تتناول الحياة والموت، من الموضوعات الرئيسة التي دار عليها شعر الشعراء الرومانسيين. وقد جسَّد الشاعر الجاهلي صراحة مع الزمن من خلال الموضوعات الآتية:

الحياة والموت

نجد أنَّ موضوع الحياة والموت، أرقَّ الشاعر الجاهلي، ممَّا جعله يبذل جهداً كبيراً، من أجل أن يعرف شيئاً من أسرارهِ، غير أنَّ مسعاه قد خاب، ولم يظفر إلا بما لقنَّته به الحياة، وما تجرَّعه منها، من مصائب وويلات، لذلك نجد ((أنَّ نظر الجاهليين إلى الموت ظلَّ مرتبطاً بمعادلة غير متكافئة الطرفين، فصانع الموت هو

(١) الرمية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار النهضة للطبع والنشر، مصر، القاهرة: ١٥١.

(٢) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر: ٥٩.

(٣) نصوص من الشعر الجاهلي قبل الإسلام دراسة وتحليل، د. نوري حمودي القيسي ود. محمود عبد الله الجادر ود. بهجت عبد الغفور الحديشي: ١٣٣، و ١٤٤.

(٤) شرح شعر زهير بن أبي سلمى، أبو العباس ثعلب، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط ٣، مطبعة الغوثاني، دمشق، ٢٠٠٨ م: ٢٦- ٢٧.

الزمن، أو الدهر، الذي يُرادفه كثيراً... ويستقر في الوعي أنَّ الزمن قاتلٌ خفيٌّ لا يفلتُ أحدٌ من برائته^(١)، ويبدو ذلك واضحاً في شعر الشاعر النابغة الجعدي وهو يقول:

ولا تأمنوا الدهر الخوونَ فإنَّه
على كُلِّ حالٍ بالورى يتقلبُ^(٢)

ومثله قول الشاعر زهير بن أبي سلمى الذي يعنّف الدهر، ويوبّخه لما يفعله به، وبقومه، ثم يقفُ مُستسلماً أمام إرادته التي لا تُفهر، فيقول:

فاستأثر الدهر الغداةَ بهم
والدهرُ يرميني ولا أرمي

لو كان لي قرنًا أناضله
ما طاش عند حفظة سَهْمِي

يا دهرُ قد أكثرت فجعتنا
بسرّاتنا وقرعت في العظم

وسلبتنا ما لست مُعقِبَ به
يا دهرُ ما أنصفت في الحكم^(٣)

وكانت مثل هذه المشاعر، مصدر نكد لحياة الشاعر الجاهلي، الذي أخذ يُمعن النظر في حياته، ويتأملها جيداً، لعلّه يجد فيها ما يهدئ روعه، ويُزيح عنه كابوس الخوف، غير أنَّ خلاصة ما وصل إليه من تأملات لحقيقة الحياة، في كونها لا تعدو الزمن الذي قسّمه الإنسان إلى ليالٍ وأيامٍ وأشهرٍ وسنين، وإنَّ هذه الأيام، والأشهر، والسنين، تشبه المطايا التي يمتطيها الإنسان، فتمضي به نحو مصيره المحتوم، وهو تصويرٌ بارعٌ يذكّرنا بشعراء الرومانسيّة، وهم يُصوِّرون المواقب البشريّة وهي تشقّ طريقها في الحياة، فيتساقط كثيرٌ من أبناء البشر في أثناء هذه الرحلة المُضنية، وهم يقطعون الأيام والسنين في حياتهم^(٤)، وكذلك بما رآه بعض الرومانسيين الذين ييكون على تساقط سنواتٍ عمرهم، كما تسقط أوراق الشجر في فصل الخريف^(٥) التي هي إيذانٌ برحيل الحياة، والسير نحو الذبول والموت، وفي ذلك يقول حاتم الطائي:

وما هي إلا ليلة، ثم يومها
وحوّل إلى حولٍ، وشهرٌ إلى شهرٍ

مطايًا يُقرّين الصحيح إلى البلى
ويُدنين أشلاءَ الهمام من القبر^(٦)

ويقول حاتم الطائي في المعنى نفسه:

هل الدهرُ إلا اليومُ أو أمسٍ أو غدٍ
كذاك الزمانُ بيننا يتردّد

يردّ علينا ليلةً بعد يومها
فلا نحنُ ما نبقي ولا الدهرُ ينفد

لنا أجلٌ إمّا تناهى أمّاه
فنحنُ على آثاره نتورّد^(٧)

فقد أحزنَ تعاقبُ الأيام حاتم الطائي، ونعّص عيشه، عندما أدرك ما ينجُم عن مجيئها، وتعاقبها، مع الزمن، فهي تقوده نحو الهرم، والشيخوخة، والفناء، وكان الشاعر اقترَب ممّا قاله الفيلسوف هركليطس: ((أنت لا تنزل إلى النهر مرّتين))^(٨)؛ لأنّ الحياة مُتغيّرة، وإنّ التغيّر يطال الأشياء جميعها، في كلّ لحظة من لحظات حياتها، وأنّ لا شيء يظلّ على حاله، بل أنّ الكلّ يمضي نحو الزوال والفناء. وهذا ما دعا الشاعر الجاهلي إلى الحزن وهو يستقبل يومه الجديد؛ لأنّه رأى فيه نذير شؤمٍ يحمل معه شبح الموت، فيقول عمرو بن الأهم:

يُطاوحنِي يومٌ جديدٌ وليلة
هما أبليا جسمي وكلّ فئى بالي

إذا ما سلخت الشهرَ أهلت مثله
كفى قاتلاً سَلخي الشهورَ وإهلالي^(٩)

ومثل هذا المعنى يُردّده عبيد بن الأبرص في قوله:

يا عمرُو ما راحَ من قومٍ ولا ابتكروا
إلا وللموتِ في آثارهم حادي

يا عمرُو ما طلعت شمسٌ ولا غربت
إلا تُقربُ أجالاً لميعاد^(١٠)

ويمضي الشاعر الجاهلي في تأمّله للحياة والموت، ويُعنى بهذه الثنائية التي كانت موضوعاً بارزاً استأثرت باهتمام شعراء الرومانسيّة في العصر الحديث، فكان لرؤية الشاعر الجاهلي ((في نسيج الوجود خيطان: خيط

(١) دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبد الله الجادر، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩٠م: ٢٢٨.

(٢) ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه: د. واضح الصمد، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م: ٢٩.

(٣) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ٢٨٢.

(٤) ينظر: الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د. سالم أحمد الحمداوي، د. فائق مصطفى أحمد، دار الكتب، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٧م: ٢١٨.

(٥) ينظر عبد الرحمن شكرى ناقدًا وشاعرًا، د. عبد الفتاح عبد الحسن الشطي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٩م: ٢٥٦.

(٦) ديوان حاتم الطائي، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه: د. حتّا نصر الجني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١١٠.

(٧) ديوان حاتم الطائي: ٦٤. إمامه: طريقه الواضح، تنوّد: تنوّد.

(٨) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم، بيروت: ١٧.

(٩) الحاسة البصرية، لعلّي بن أبي الفرج البصري (ت ٦٥٩هـ)، تحقيق: د. أحمد عبد المعيد خان، الهند، ١٩٦٤م: ٤١٦.

(١٠) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصّار، مطبعة مصطفى البابي بمصر، ١٩٧٥م: ٤٨.

الحياة، وخيظ الموت، والموت والحياة سُداةُ الوجودِ وَلَحْمَتِهِ^(١)، ورأى الشاعر الجاهلي ثنائية الحياة والموت في الطلل الذي كان عامراً بأهله الذين نصبوا الأثافي، وطهوا الطعام، ثم رحلوا عنه، وأصبحت ديارهم مقفرة، موحشة تسكنها الحيوانات، بعد أن وجدت فيها مكاناً آمناً خالياً من البشر، ثم يحاول الشاعر عبيد بن الأبرص أن يتعمق في هذا الموضوع غير أنه لم يأت بشيء جديد سوى بعض الحكم التي استلهمها من تجاربه الحياتية، وهو يقول:

إِنْ بُدِّلَتْ أَهْلُهَا وَحَوْشُهَا وَغَيَّرَتْ حَالَهَا الْخُطُوبُ
أَرْضٌ تَوَارَتْهَا شُعُوبٌ وَكُلٌّ مِنْ حَلْهَا مَخْرُوبٌ
إِمَّا قَتِيلًا وَإِمَّا هَالِكًا وَالشَّيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ^(٢)

وظلَّ شبح الموت يلاحق الشاعر في العصر الجاهلي، في يقظته، ونومه، ويلوح له كما تلوح له الشمس عند شروقها وغروبها، فيذهب عنه، ويجيء إليه، فينغص عليه حياته، ويحيلها إلى حياة كئيبة حزينة، وبخاصة حين تأمل الحياة بعمق، ثم خرج بهذه الرؤيا، وهي أنَّ حياة الإنسان مهما طالَّت، فلا بُدَّ لها أن تقف، ويعقبها الموت، وعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة ويضعها نصب عينيه، ولا يغتر بطول الحياة؛ لأنَّ للدهر غولاً تتربص به سوءاً، وتبغى الانقضاء عليه، واغتياله، وإهلاكه في آية لحظة تشاء، وفي ذلك يقول الشاعر أمية بن أبي الصلت:

كُلَّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَانِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إنَّ للدهر غولاً^(٣)

ويأتي الشاعر امرؤ القيس بالمعنى نفسه، بعدما جعل الدهر ذاته، غولاً غدوراً لا يؤمن جانباً، يمكن له أن ينقض على حياة الإنسان، ويطفئ شعلة الحياة، ويجهض آماله مما كان سبباً في حزن امرئ القيس في هذه الحياة، فيقول:

أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنَّ الدَّهْرَ غَوَلٌ خُتِرَ الْعَهْدُ يَلْتَهُمُ الرِّجَالُ^(٤)

إنَّ مثل هذه المشاعر التي يحسُّ من خلالها الشاعر الجاهلي أنَّ الخلود في هذه الحياة ضربٌ من المستحيل، وإنَّ الموت واقعٌ في الحياة، ولا رادَّ له قلبت حياة الشاعر عدي بن زيد، رأساً على عقب، من حياة ينعم بها ببال صافٍ، وهو ينغمس بطيب الحياة، ويقطف لذاتها، وينعم بها، إلى ما يشعره أنَّ أيامه تمضي بسرعة إلى نهاية محزنة، ممَّا جعله يمسى مكتئباً حزينا كثير الهموم يورقه ما ينتظره من مصير مؤلم، وهو يرى الحياة كالشهاب تضيء، ثم تنطفئ، وينتهي كل شيء، وفي ذلك يقول:

فإِنْ أَمْسَيْتُ مُكْتَتِبًا حَزِينًا كَثِيرَ الْهَمِّ يَشْهَدُنِي الْحَذَارُ
فَقَدْ بُدِّلَتْ ذَاكَ بِنَعْمٍ بَالٍ وَأَيَّامٍ لِيَالِيهَا قِصَارُ
بأنَّ المرءَ لم يُخْلَقْ حَديداً وَلَا هَضْبًا تَوَقَّاهُ الْوَبَارُ
ولكن كالشهابٍ فثمَّ يخبو وحادي الموت عنه ما يحارُ
فهل من خالدٍ إمَّا هلكنَا وهل بالموت - يا للناس - عارُ^(٥)

ويحاول الشاعر الجاهلي أن يخفف من وطأة الموت على نفسه، بتعليل النفس بأنَّ الموت واقعٌ على الناس جميعاً، وما عليه إلا أن يستسلم له، ويرضى بما كتبه له الأقدار، كما قال بشر بن أبي خازم:

لا أرى النَّائِبَاتِ عَدِيدِينَ حَيًّا لا لِعُدَمٍ وَلَا لِكَثْرَةِ مَالٍ^(٦)

غير أنَّ بعض الشعراء لجأوا إلى ذكر بعض النماذج من الرجال العظام في عصرهم ممَّن طالهم الموت، على الرغم ممَّا كانوا يتمتعون به من جاهٍ وسلطان في حياتهم، ورأوا في هذه النماذج ما يهون عليهم أمر الموت، فقال امرؤ القيس:

أَرْجِي مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لَيْثًا وَلَمْ تَغْفُلْ عَنِ الصَّمِّ الْهَضَابِ
وَأَعْلَمُ أَنَّي عَمَّا قَلِيلٍ سَأَنْشَبُ فِي شَبَابٍ ظَفَرٍ وَنَابِ
كما لاقي أبي خُجْرٍ وَجْدِي وَلَا أَنْسَى قَتِيلًا بِالْكَلابِ^(٧)

(١) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ط٢، ١٩٨٢م: ١٦٦ .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص: ١١ .

(٣) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، تحقيق: بحجة عبد الغفور الحديدي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٥م: ٣٤٦ .

(٤) ديوان امرئ القيس، ضبطه وصححه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥: ١٥٠ .

(٥) ديوان عدي بن زيد، تحقيق: محمد جبار المعبيد، بغداد، ١٩٦٥م: ١٣٢-١٣٣ .

(٦) ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: عزّة حسن، دمشق، ١٩٧٢م: ١٧١ .

ومثله قول الأسود بن يعفر:

فإن يك يومي قد دنا وإخاله
فقبل لي مات الخالدان كلاهما
وعمرؤ بن مسعود وقيس بن خالد
وأسبابه أهلكن عادًا وأنزلت

والشاعر هنا ((لم يكن يذكر الذين صرعه الموت من أعرّة قومه، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك، فذكر عادًا)) ليقرر القناعة بأن منعة الغابرين الذين تحولت سيرهم إلى ما يشبه الأساطير، لم تكن ذات جدوى هي أيضًا في مواجهتهم للمصير المحتوم^(١). غير أن معنى الخلود نجده واضحًا في شعر السموأل، وهو يرى أن الخلود الذي يبغيه الإنسان في حياته، هو ضرب من الوهم، وكل حي هالك، ولا بد للإنسان أن يعرف هذه الحقيقة، ويؤمن بها، ويكون على بينة منها، فيقول:

إن امرءًا آمن الحوادث جاهل
لا تبعذن فكل حي هالك

ويردّد المعنى ذاته أبو زيد الطائي في مراثيته لأخيه بعدما رأى أن طول الحياة لا يدلّ على سعادة الإنسان، ما دامت هذه الحياة مهما طالّت، فسوف يعقبها موت مما يجعل حياة الإنسان غير سعيدة؛ لأنّ تذكر الموت يُنغصّ على صاحبها عيشه، فيقول:

إن طول الحياة غير مسعود

ويردّد المعنى ذاته الشاعر قيس بن الخطيم، فيقول:

ومن يك غافلًا لم يلق بؤسًا
تناوله بنات الدهر حتى
فقل للمثّة عرض المنايا

غير أن هناك رؤيا أخرى للموت، وجد فيها الشاعر الجاهلي الموت بأنه الخلاص من رحلة المتاعب، فالحياة في نظر هؤلاء الشعراء مليئة بالأسقام والأحزان، وإن الإنسان يتعذب فيها، ويشقى في أتونها، فيأتي الموت ليضع حدًا لحياته التي ضاق بها ذرعًا، وإن مثل هذه الرؤيا تشبه ما دعا إليه الرومانسيون في العصر الحديث؛ إذ كانوا يحبون الموت ويدعون إليه، بعدما رأوا فيه المنقذ لهم من هذه الحياة التعيسة^(٢) التي يعيشونها، ونجد مثل هذه الدعوة في شعر الأعشى وهو يقول:

لعمرك ما طول هذا الرمن
يظّل رجباً لرب المنون
وهالك أهلي يجنونه
وما إن أرى الدهر في صرّفه

ويكاد طرفه بن العبد يردّد المعنى ذاته الذي قاله معظم الشعراء الجاهليين، وهو أن الموت واقع على الجميع، ولم ينبج منه أحد، وأن حبله المتين قد ضرب على أعناق البشر جميعهم، ولم يبق سوى ما تأمر به الأقدار، حينها يقاد الإنسان إلى حتفه، فيقول:

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى
متى ما يشأ يوماً يقذه لحتفه

وربما كان هذا الشعور هو الذي جعل طرفه بن العبد حزينًا، كئيبيًا، يائسًا من الحياة، يتغنى بأحزانه على شاكلة الرومانسيين، ويعيش غربه في حياته، وينطوي على نفسه، ويهرب من واقع إلى احتساء الخمر، أو إلى

(١) ديوان امرئ القيس: ٤٤.

(٢) ديوان الأسود بن يعفر، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، بغداد، ١٩٧٠م: ٥٦-٥٧.

(٣) دراسات نقدية في الأدب العربي: ٢٣٥.

(٤) شعر السموأل، تحقيق وشرح عيسى سابا، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥١م: ٣٠.

(٥) شعر أبي زيد الطائي، جمعه وحققه الدكتور نوري حمودي القيسي، ساعد الجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م: ٤٢.

(٦) ديوان قيس بن الخطيم، حققه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢م: ٧١.

(٧) عبد الرحمن شكري ناقلًا شاعرًا: ٢٢١.

(٨) ديوان الأعشى الكبير: ١٥. الرحيم: الملعون، يجنونه في الأرض ويدفونونه.

(٩) ديوان طرفه بن العبد، تقدم وشرح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي بحلب: ٣٥.

أحضان النساء أو التعبير عن مروءته وإنسانيته التي وجد فيها متعة تُبرِّرُ له تحمُّلُ أعباء الحياة القاسية، ولولا هذه الأشياء الثلاثة لرحَّبَ بالموت، ولم يعبأ به كما قال:

وجدك لم أحفل متى قام عودي
كُنيت متى ما تعل بالماء تزيد
كسيد الغضى، نبهته، المتورد^(١)

فلولا ثلاث هُنَّ من عيشة الفتى
فمنهنَّ سبق العاذلات بشربة
وكري إذا نادى المضاف مُحَنَّبًا

وسارَ طرفه نحو الموت بِحُطَى ثابتة غيرَ خائف، بعدما ((اقتنعَ رَغَمَ حادثة السنَّ، بأنَّ الموتَ حقيقةً ماثلةً للعيان في كُلِّ لحظة، لقد كان طرفه قريبًا في توجُّهه من الوجوديين الذين أعلنوا عبثية الحياة، تلك الحياة التي لا تستندُ حسب رأيهم إلى أيِّ أساس ما هوي... فالوجودُ عَدَمٌ، والموتُ بذرةٌ كامنةٌ في جسدِ الحيِّ مُنذُ ولادته. لقد أدرك الشاعرُ الجاهليُّ الشابُّ أنَّه من العبثِ إضاعةُ هذه الفرصةِ الوجيهةِ بعيدًا عن اللذة:

ستعلم إن متنا غداً أينما الصدي
كقبر غوي في البطالة مُفسد
صفائح صم من صفيح مُنضد
وما تُنقص الأيام والدهرُ ينفد

كريم يُروِّي نفسه في حياته
أرى قبر نَحامٍ بخيلٍ بماله
تري جثوتين من ثرابٍ عليهما
أرى العيش كنزًا ناقصًا كُلَّ ليلة

ما أوصى به طرفه من استنزاف كُلِّ هنية في ما يعطي للحياة معنى^(٢). غير أنَّه لم يخشَ الموتَ ومضى إليه برباطة جأش بعدما أدرك أنَّ الحياةَ زائلةٌ، فأرادَ أن يضعَ حدًّا لحياته العبثية، وما رافقها من ضنك العيش، وما اعترض سبيله من مشاكل جعلته يضيقُ ذرعًا بها، فقال:

وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي^(٣)

ألا أيهدا الزاجري أحضر الوغي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

ونجدُ مثلَ هذه الرؤيا التي تقولُ أنَّ المرءَ يحملُ بذورَ فناءه منذ الولادة، وما عليه إلا أن يخضعَ للأمر الواقع، وأن يتجرَّعَ كأسَ الموت، لدى كثير من شعراء العصر الجاهلي ومنهم السَّمَوَالُ في هذه الأبيات التي حاولَ فيها أن يتعمَّقَ في حقيقة الموت والحياة في قوله:

فني الرجال ذوو القوى ففنيث
والموت يطلبني ولست أفوث
ويرى فلا يعيا بحيث أبيث
شيئا يموت فمت حيث حييث
إن كان ينفغ أنني ساموث^(٤)

اسلم سلمت ولا سليم على البلى
كيف السلامة إن أردت سلامة
وأقيل حيث أرى فلا أخفي له
ميثا خفقت ولم أكن من قبلها
وأموث أخرى بعدها ولا عملن

وفعل بعض شعراء الجاهلية مثل ما فعل شعراء مدرسة القبور الإنكليزية، الذين كانوا يعيشون حيث يرقُدُ الموتى، ويقفون في هدأة الليل، أمام القبور، ثم ينظمون ما يدورُ في بالهم من خواطرٍ وهواجسٍ، وكان أصحابُ مدرسة القبور يرون أنَّ القبرَ وما حوَّاه من الأهل والأحباب، كان موضوعًا مُحَبِّبًا لهم، وكان الليلُ موحياً لهم بخواطرَ تدورُ حولَ الموت والخلود^(٥)، فقد وقف الشاعرُ عديُّ بن زيد العبادي عند إحدى المقابر، وسجَّلَ خواطرَهُ الشعريةَ، كما يفعلُ بعضُ الشعراء الرومانسيين في العصر الحديث، غير أنَّ عديَّ بن زيد لم يذهب بعيدًا بخياله، ويصوِّرُ لنا أدقَّ هواجسه التي انطبعت في ذهنه وهو يرى منظرَ القبور، بل وقفَ عند حدود العبرة والموعظة، وما ينتظرُ الإنسان من مصيرٍ حزين، ورأى في القبور شاهدًا على زوال الحياة، وانطفاء شعلتها، وما تتركُهُ هذه المشاعرُ على نفس الإنسان، من انكسارٍ، ويأسٍ، ورؤية قاتمة للوجود تدعوهُ ألا يفرحَ بالنعيم الذي هو فيه، أو النجاحات التي حقَّقها في حياته. وقد صاغَ عديُّ بن زيد هذه الرؤيا بأسلوب قصصي جميل وظفَّ فيها بعض القصص التاريخي توظيفًا مُوفقًا في التعبير عن نظريته الحزينة المُتَشائمة، فقالَ ذلك على لسان قبور الموتى:

إنه مُوفٍ على قرن زوال
ولما تأتي به صم الجبال
يشربون الخمر بالماء الزلال
أمني دهرهم غير عجال

من رانا فلنحدث أنفسه
وخطوب الدهر لا ينفى لها
رب ركب قد أناخوا عندنا
عمروا دهرًا بعيش حسن

(١) ديوان طرفة بن العبد: ٣٤.

(٢) الموت من منظور الذات قراءة في جدارية محمود درويش، د. عبد السلام المساوي، مجلة الفكر، العدد (٤)، المجلد (٣٥)، أبريل- يونيو ٢٠٠٧م: ١٣١.

(٣) ديوان طرفة: ٣٣.

(٤) شعر السموال: ٢٩.

(٥) ينظر: جماعة الديوان، الدكتور يسري محمد سلامة، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٧م: ١١٣.

عَمِرُوا دَهْرًا بِعَيْشٍ حَسَنٍ آمَنِي دَهْرَهُمْ غَيْرَ عَجَالٍ

ثُمَّ أَضْحُوا أَخْنَعَ الدَّهْرُ بِهِمْ وكذلك الدهرُ يودي بالجبَّال^(١)

وقصة نظم هذه الأبيات تقول أن النعمان بن المنذر - ملك الحيرة - خرج ينتزعه بظهر الحيرة، ومعه عدي بن زيد، فمرا على المقابر من ظهر الحيرة، فقال له - أبيت اللعن - أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال: لا، قال: فإنها تقول^(٢):

أَيُّهَا الرِّكْبُ الْمُخْبِتُ نَ، عَلَى الْأَرْضِ الْمُجْتُونُ

فَكَمَا أَنَا نَحْنُ كَمَا وكما نحن تكونون^(٣)

وتغنى بعض الشعراء الجاهليين بآلامهم، وأشجانهم؛ لعل ذلك يخفف من وطأة الألم الذي اجتاحت نفوسهم التي أعيها شبح الموت الذي يطارد نفوسهم بين الحين، والحين، وعمل على إفساد متعة الحياة لديهم، ممّا حدا بالشاعر عدي بن زيد العبادي إلى أن يتمنى ما تمنّاه بعض الرومانسيين المحدثين، أن يعيشوا مثل الأقوام البدائية الجاهلة بحقيقة الحياة، إذ تجري الأيام من حولهم، من دون أن يكتثروا بها، وهم لا يعيرون بها^(٤)، فعدي بن زيد يرى أن الجهل من لذة الفتى؛ لأنّ الجاهل غير المتعلم، قد تمرّ به أيام جائرة، ويتجرّع مرارتها، ويقارعها مقارعة سليبية من غير أن تترك في نفسه آثاراً عميقة تجعله يحتسب لها، فالجاهل في كثير من الأحيان يرجع كثيراً من الظواهر الحياتية التي تؤذيه، وتعكر صفو حياته، إلى أسباب غيبية، ويرضى بما يقع عليه من غبن وسوء حال، تحت هذه التعليلات الساذجة، أمّا المتعلم فيرجع الأمور إلى أسبابها الحقيقية، وعندما يجد نفسه عاجزاً عن الحل، فإن ذلك يؤرقه ويعذبه في الحياة، ونجد ذلك واضحاً في قول عدي بن زيد:

أَعَاذِلْ إِنَّ الْجَهْلَ مِنْ لَذَّةِ الْفَتَى وإنّ المنايا للرجال بمرصد

أَعَاذِلْ مَنْ تَكْتَبُ لَهُ النَّارُ يَلْقَاهَا كفاحاً، ومن يكتب له الفوز يسعد

أَعَاذِلْ مَا يُدْرِكُ إِلَّا تَظَنُّا إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد^(٥)

أمّا امرؤ القيس، فقد استغرب من أمر الناس الذين يتجاهلون ما ينتظرهم من مصير مؤلم، وهم مُغمسون في الحياة الدنيا، لا هم لهم سوى إشباع بطونهم من مأكّل وشراب، وينسون أن الموت يترصص بهم سوءاً، فقد تركت هذه الرؤيا الحزن، والتشاؤم في نفس امرئ القيس الذي كان يدرك حقيقة الحياة، وما تؤول إليه، في حين أن معظم الناس يجهلون هذه الحقائق، لذلك ينعمون بالحياة في حين أن الشاعر ذا الحسّ المُرَهَف يتعذب لذلك، فقال:

أَرَأَنَا مُوَضِّعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ* ونُسخر* بالطعام وبالشراب

عَصَافِيرَ، وَذِبَّانَ***، وَدُوْدَ وأجراً من مجلحة الذئاب

فبعض اللوم عاذلتني فإني ستكفيني التجارب وانتسابي

إِلَى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجْتِ غُرُوقِي وهذا الموت يسلبني شبابي

وَنَفْسِي سَوْفَ يَسْلُبُنِي وَجْزَمِي فيلحقني وشيكا بالثراب^(٦)

ونجد حالة القلق واضحة لدى الشاعر لبيد بن ربيعة العامري، وهو يتأمل الحياة، والموت. ويمكننا أن نلمس اللوعة التي تركتها هذه المشاعر في نفسه، وهو يرى أن الموت كتبت على الإنسان، وهو شبح يؤرقه في حياته؛ لأنّه يشعر بأنّه - أي الموت - قريب منه، ويمكن أن يُجهز عليه في أيّ وقت، وما زاد من ألمه وحزنه أن هذا الموت لا أحد يدرك ماهيته، ويعرف أسرارته، حتّى الساحرات اللواتي شيع عنهنّ معرفة أسرار الغيب، وفعل الخوارق، فإنهنّ يقفن عاجزات أمام الموت، فقال:

فَلَا تَبْعِدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَوْعِدٌ عليك فدان^(*) للطلوع وطلوع

أَعَاذِلْ مَا يُدْرِكُ إِلَّا تَظَنُّا^(**) إذا ارتحل الفتيان من هوراجع؟

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٢ - ٨٣ .

(٢) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مطبعة الشعب، القاهرة، د.ت: ٥١٤ / ٢ .

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٨٠ .

(٤) ينظر: الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣ م: ٨٣ .

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٠٣ .

* أي مُسرّعين للموت المُجيب .

** نُسخَر: تُلهى وتُغشَى .

*** عصافير وذبان: أي مخلوقات ضعيفة، ومجلحة الذئاب: وهي المصممة على شيء التي لا ترجع عما تريد.

(*) ديوان امرئ القيس: ٤٣ .

(*) الداني: القريب، الطالع سيراً عن الداني للطلوع .

وأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ الْقَوَارِعُ
أَلَا إِنَّ أَخْدَانَ الشَّبَابِ الرِّعَارِعُ
وَلَا زَاغِرَاتِ الطَّيْرِ (****) مَا اللَّهُ صَانِعُ
يَذُوقُ الْمَنَايَا، أَوْ مَتَى الْغَيْثُ وَقَعَ؟^(١)

أَتَجَزَّعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى
ثُبْجِي (***). عَلَى إِثْرِ الشَّبَابِ الَّذِي مَضَى
لِعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الضَّوَارِبُ بِالْحَصَى
سَلَوْهُنَّ إِنْ كَذَّبْتُمُونِي مَتَى الْفَتَى

وصاغ بعض الشعراء تأملاتهم في الحياة، والموت، على شكل أقصوصة شعرية، بعدما أطلقوا العنان لخيالهم؛ ليصوّروا لنا ما يؤول إليه مصير الإنسان بعد الموت، فصوّر لنا أمية بن أبي الصلت عاقبة المجرمين، وكيف يُساقون إلى العقاب الذي ينتظرهم وهم غرّة مُقَيَّدُونَ بالسلاسل، ويُعَذَّبُونَ بالضرب على رؤوسهم بالمقاع، ثم يُصلون بالنار ويُطلقون الأصوات التي تدلّ على ما يلقونه من شدّة العذاب الذي وقع عليهم، وهي صورة مُرعبة رسمها الشاعر لما يعقب موت الخلق، وقد استقى الشاعر هذه المعاني والأخيلة بما كان سائداً في عصره من معتقدات دينية، ثم أضفى عليها شيئاً من خياله، فقال:

وَذِي دُنْيَا يَصِيرُ إِلَى زَوَالٍ
سِوَى الْبَاقِي الْمُقَدَّسِ ذِي الْجَلَالِ
إِلَى ذَاتِ الْمَقَامِ وَالنَّكَالِ
وَعَجَّوْا فِي سَلَسِلِهَا الطَّوَالِ
وَكُلُّهُمْ بِخَرِّ النَّارِ صَالٍ^(٢)

فَكُلُّ مُعَمَّرٍ لَا بَدَّ يَوْمًا
وَيَفْنَى بَعْدَ جَذَّتِهِ وَيَبْلَى
وَسِيقَ الْمُجْرِمُونَ وَهُمْ غُرَّة
فَنَادُوا وَيَلْنَا وَيَلَا طَوِيلًا
فَلَيْسُوا مَيِّتِينَ فَيَسْتَرِيحُوا

وهذه الأبيات الشعرية، تُذكّرنا بما نظمه بعض الشعراء الرومانسيين المُحدّثين من قصائد ذات طابع قصصي، يحكي لنا ما تضطرب به نفس الشاعر الرومانسي، من قلق، واضطراب في حياته، بحيث يذهب به الخيال إلى أن يصوّر لنا مشهداً من حياة الآخرة، وهي في حقيقة أمرها تُصوّر ما تخرّج به حياته من صراعات، فضلاً على ما تسرّب إلى ذهنه من قصص تُصوّر ما ينتظر الإنسان في آخرته من حساب، وعقاب. وقد صاغ ذلك بأسلوب خيالي بعيد، وفي ذلك يقول الشاعر (عبد الرحمن شكري) مُصَوِّراً يوم البعث والنشور:

عَدَا كَأَنَّ مَرَّ بِي الْآبَاءُ وَالْقِدَمُ
أَبْوَاقِهِمْ، وَتَنَادَتْ تِلْكَمُ الرَّمَمُ
هُوجَاءَ كَاللَّيْلِ حَمَّ لُجَّةَ عَرَمُ
وَتِلْكَ تُعَوِّزُهَا الْأَصْدَاغُ وَاللِّمَمُ
وَصَاحِبُ الرَّأْسِ يَبْكِيهِ وَيَخْتَصِمُ^(٣)

مَرَّتْ عَلَيَّ قُرُونٌ لَسْتُ أَحْفَظُهَا
حَتَّى بُعِثْتُ عَلَى نَفْخِ الْمَلَانِكِ فِي
وَقَامَ حَوْلِي مِنَ الْأَمْوَاتِ زَعْفَةٌ
فَذَاكَ يَبْحَثُ عَنْ عَيْنٍ لَهُ فَقِدْتُ
وَرُبَّ غَاصِبٍ رَأْسٍ لَيْسَ صَاحِبَةً
وَلَا بَدَّ مِنَ الْقَوْلِ أَنَّ قَصِيدَةَ (عبد الرحمن شكري)، موعظة في الخيال، وجاء بهذه الصور الخيالية التي

تحكي قلقه العميق في حياته المضطربة، وما يشوبها من صراعات محتدمة بين البشر. أمّا أمية بن أبي الصلت، فجاء خياله في حدود ما استقرّ في ذهنه من معتقدات دينية كانت معروفة في عصره، ثم أضفى عليها شيئاً من خياله، لكن ذلك في الأحوال كلها يُعطي صورة عن قلق الشاعر في حياته، وتوجّسه من الموت، ممّا دعاه إلى أن يرسم هذه الصورة المُرعبة للحياة الأخرى.

ونظم عدي بن زيد قصيدة في تأمل الحياة، وخرج من هذا التأمل بالخيبة، والانكسار النفسي، بعدما اتّضح له أن الحياة زائلة، ولم ينفع الإنسان ما حصل عليه من مُلكٍ وجاه في الحياة، وما أحرزته فيها من رُقْيٍ، وساق لذلك بعض القصص التاريخي، ممّا حلّ بأشهر ملوك عصره، وهم ملوك الفرس والروم الذين كان العالم آنذاك يدين لهم بالولاء، ولا يُنازعهم فيه أحد، فخرج الشاعر إلى نتيجة مفادها أن الناس جميعاً ينتظرهم المصير نفسه الذي لم يستثن الملوك الأكاسرة والقيصرة، وملوك الحضرة، والخورنق، فالكُلُّ يعصف بهم الدهر، وينثر سنوات عمرهم، كما تنتثر ریح الخريف أوراق الشجر، فقال عدي:

لَكَ فَاَعْلَمُ لِأَيِّ حَالٍ تَصِيرُ

أَرْوَاحُ مُوَدَّعٍ، أَمْ بِكُـوَرٍ؟

ثم يقول:

رَ، أَأَنْتَ الْمُبَرَّرُ الْمَوْفُورُ؟
أَمْ، بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ؟
ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ؟
وَأَنْ، أَمْ أَيْبَنَ قَبْلَهُ سَابُورُ؟

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بِالذَّهْرِ
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْأَيِّ
مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونَ خَلَدْنَ، أَمْ مَنْ
أَيَّنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشُرُ

(***). ثُبْجِي، أي العاذلة، الأخدان: الأخوان، الرعارع: جمع رعرع وهو الشاب الحسن القوام.

(****) زاجرات الطير: إشارة إلى عادة العرب في زجر الطير للتنبؤ بالآتي.

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقّده له: د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢: ١٧١-١٧٢.

(٢) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره: ٣٨٥.

(٣) الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره: ١٥٤.

وَأَنْ، أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
وَم، أَلَمْ يَنْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ
لَهُ تُجَبَّى إِلَيْهِ، وَالْخَابُورُ
مَلَكٌ مِنْهُ، فَبَابُهُ مَهْجُورُ

مَّةً وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقَبُورُ
فَالُوتُ بِهِ الصَّبَا وَالذَّبُورُ^(١)

أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَتُوشَرُ
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْمُلُوكِ مُلُوكُ الرُّ
وَأَخُو الْخَضِرِ إِذْ بَنَاهُ، وَإِذْ دَجَّ
لَمْ يَهْبَهُ رَيْبُ الْمَنُونِ، فَبَادَ الْ

ثُمَّ يَنْهِي قَصِيدَتَهُ بِقَوْلِهِ:
ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِ
ثُمَّ أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌّ جَفَّ

شعر الطبيعة

ونجد بغض التأملات البسيطة التي حاول من خلالها الشاعر الجاهلي أن يخلع شيئاً من مشاعره، وأحاسيسه على الطبيعة، ويرى في الطبيعة ما يُعَبِّرُ عَمَّا يَجِيشُ فِي خَاطِرِهِ مِنْ هَوَاجِسٍ وَعَوَاطِفٍ، فَالشاعرُ لَبِيدُ بن ربيعة العامري رأى في لمعان الشهاب، وانطفائه بما يشبه حياة الإنسان الذي يرى نور الحياة في ولادته، ثم ينطفئ هذا النور في وفاته، فالشهاب يُعَبِّرُ عَنِ الْحَقِيقَةِ الْمُرَّةِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِيهَا مَأْسَاءُ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْوُهُ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ^(٢)

ونرى الصورة التي استقاهها الشاعر الجاهلي من الطبيعة، عن حياة الإنسان التي تنتهي إلى الموت، أكثر وضوحاً في شعر حسان السعدي، وهو يرى ما يحلُّ بِالْإِنْسَانِ مِنْ نَهَائِيَّةٍ مُحْزَنَةٍ مَعَ تَقَادُمِ الْأَيَّامِ، تَتَمَثَّلُ بِالْقَمَرِ الَّذِي يَهْلُ صَغِيرًا، ثُمَّ يَكْبُرُ وَيَزْدَادُ نَوْرَهُ إِشْعَاعًا حَتَّى يَبْلُغَ التَّمَامَ، ثُمَّ يَبْدَأُ بِالتَّضَاوُلِ مَعَ الْأَيَّامِ، فَيَخْبُو ضَوْؤُهُ مَعَ الْأَيَّامِ حَتَّى يَزُولَ، وَهَذَا النُّوعُ مِنَ التَّشْبِيهِ يُسَمِّيهِ الْبَلَاغِيُّونَ بِالتَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ، إِذْ يَكُونُ وَجْهُ الشَّيْءِ مُنْتَزَعًا مِنْ أَشْيَاءٍ مُتَعَدَّةٍ^(٣)، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ:

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ رَيْبٍ دَهْرٍ فَإِنِّي أَرَى قَمَرَ اللَّيْلِ الْمُعَذَّبِ كَالْفَتَى
يَهْلُ صَغِيرًا، ثُمَّ يَعْظُمُ ضَوْؤُهُ وَصُورُهُ حَتَّى إِذَا مَا هُوَ اسْتَوَى
تَقَارِبُ يَخْبُو ضَوْؤُهُ وَشِعَاعُهُ وَيَمْصُحُ* حَتَّى يَسْتَسِرَّ فَمَا يُرَى^(٤)

أما كعب بن زهير، فقد رأى ما رآه غيره، من شعراء العصر الجاهلي، بأن المرأة، والمال ينموان إلا أنهما يفنيان مع مرور الأيام، وتقدم الزمن، ورأى هذه الصورة، قد تجسدت بالغصن الذي يبدأ ناعماً جذلاً إلى أن يصفر ورقه، ويتساقط، ويدبُل، ويموت، وهذا ما يُذَكِّرُنَا بِأَخِيلَةَ الرُّومَانِيِّينَ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يَرَوْنَ تَسَاقُطَ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ، فِي فَصْلِ الْخَرِيفِ، مَا يَشْبَهُ تَسَاقُطَ سَنَوَاتِ عُمُرِ الْإِنْسَانِ، فِي أَثْنَاءِ رَحْلَتِهِ فِي الْحَيَاةِ، لِذَلِكَ كَانَ هَذَا الْمَنْظَرُ يَثِيرُ الْحَزْنَ فِي نَفْسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ فِيهِ ذُبُولَ الْحَيَاةِ^(٥)، وَفِي ذَلِكَ قَالَ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ:

وَالْمَرْءُ وَالْمَالُ يَنْمَي ثَمَّ يَذْهَبُ مَرُّ الدَّهْرِ وَيَفْنِيهِ، فَيَنْسَحِقُ
كَالْغَصَنِ بَيْنَا تَرَاهُ نَاعِمًا هَدْبًا إِذْ هَاجَ وَانْحَتَّ عَنْ أَفْنَانِهِ الْوَرَقُ^(٦)

وربما اقترب من هذه المشاعر عدي بن زيد في قوله الذي سبق أن ذكرناه:
ثُمَّ أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌّ جَفَّ وَتَكَرَّرَتْ مِثْلُ هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُسْتَقَاءَةِ مِنَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ كَيْفَ تَمْضِي حَيَاةُ الْإِنْسَانِ نَحْوَ الْأَفُولِ، لَدَى كَثِيرٍ مِنْ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمِنْهُمْ حَاتِمُ الطَّائِي الَّذِي قَالَ:

عَرِثٌ عَنِ الشَّبَابِ وَكُنْتُ غَضًّا وَهَكَذَا وَظَّفَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ عَنَاصِرَ الطَّبِيعَةِ؛ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ حَالَتِهِ النَّفْسِيَّةِ، فَهَذَا الشَّاعِرُ بَشَرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ مِثْلُ طَرْفَةِ بَنِ الْعَبْدِ يَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى أَنْ يَسْتَمْتَعَ بِالْحَيَاةِ؛ لِأَنَّ الشَّبَابَ مِثْلَ السَّحَابِ الَّذِي تَحْمِلُهُ الرِّيَّاحُ، فَإِذَا وَلَّى فَسُوفَ لَنْ يَعُودَ، فَقَالَ:

* الإثمة: النعمة، الدبور: الريح التي تقابل الصبا .

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٤ - ٨٨ .

(٢) ديوان لبید: ١٦٩ .

(٣) البلاغة فنونها وألفاظها، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط ١٠، الأردن: ٥٨ .

* يَمْصُحُ: يَذْهَبُ، وَيَسْتَسِرُّ: أَيُّ أَنَّ الْقَمَرَ فِي آخِرِ لَيَالِيهِ يَخْفَى يَوْمِينَ، وَمِنْ ثَمَّ يَتَجَدَّدُ طُلُوعُهُ بِدَايَةِ الشَّهْرِ.

(٤) الحيوان، لأبي عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصر، د.ت: ٤٧٨ .

(٥) ينظر: الشعر العربي في المهجر، د. إحسان عباس، محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م: ١٠٧ .

(٦) ديوان كعب بن زهير رواية السُّكَّرِيِّ، شرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجمع، بيروت، ١٩٦٨م: ١٦٦ .

(٧) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٩٠ .

(٨) حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقديماء، العبد لكانى الزوزني (ت ٤٣١هـ)، تحقيق: محمد جبار المعبيد، مطبعة دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م: ٧ .

قليلًا والشباب سحاب ريح إذا ولى، فليس له ارتجاع^(١)

وقف الشاعر الجاهلي أمام الليل، كما يقف الشاعر الروماني في العصر الحديث، فوجد فيه خير مُعبر عن حالته النفسية الحزينة، التي تلذت بسحب الهموم والأحزان، وزأها حزناً وسواداً ليلته الحالكة السواد، ((فهذه الصورة التي رسمها الشاعر لليل ليست مجرد صورة حرفية أمينة لليل، لكنها صورة لليل الشاعر الطويل الملىء بالهموم، إن ضخامة الهموم التي يعانها الشاعر هي التي حولت الليل فجعلته كموج البحر الهادر، ومن خلال صورة الجمل الذي تمطي بصلته، وأردف أعجازه وناء بكليلة نحس بنقل الهموم على نفسه، وكيف أنها انتشرت وامتدت في كل زاوية من زوايا نفسه))^(٢)، وفي ذلك يقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

فقلت له لما تمطي بجوزه

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

ووجد الشاعر الجاهلي في البرق ما يثير وجدانه وأحزانه، ويأخذ من المطر ((ذريعة للذكرى أو يُعتبر سبباً للأرق والهموم... فهو يتخيل في السحاب والبرق مأتماً يبكي فيه عليه))^(٣)، فقال عدي بن زيد:

أرقت لمكفهر بات فيه

تلوح المشرفة في ذراه

كان مأتماً باتت عليه

يلائن الأكف على عدي

الخير والشر

أما الثنائية الثانية، التي شغل فيها الشاعر الجاهلي، فهي ثنائية الخير والشر، التي كانت هي الأخرى، مصدر قلقه واضطرابه في هذه الحياة، وحاول أن يتعمق بهذه الظاهرة، وأن يعرف أسرارها، ويحل طلاسمها، غير أنه وقف عند ظواهر الأشياء، ولم يغوص في الأعماق، وجاءت رؤيته بسيطة، ساذجة، مما جعله يُعبر عن ألمه، وخيبته، وهو يدفع الثمن باهظاً، من جراء اضطراع الخير والشر في حياته من دون أن يجد تعليلاً منطقيّاً يشفي ظمأه. ويمكن أن نلمس ما قلناه في شعر المُتنبِّ العبد الذي يرى أن الشر يلاحقه، على الرغم من أنه ينبغي الخير، ولا يعرف سبب ذلك، فقال:

وما أدري إذا يممث أمراً

الخير الذي أنا أبتغيه

ويُعبّر الشاعر سويد بن عامر المصطلي، عما يضطرب في نفسه، من مشاعر القلق والخوف، وعدم الأمان مما ينتظره في دنياه، وما تُخبئه له الأيام مما لا يُحمد عقباه نتيجة اضطراع الخير والشر، فقال:

لا تأمن وإن أمسيت في حرم

فالخير والشر مقرونان في قرن

ويرى النابغة الذبياني، أن الحياة تتقلب بين الخير والشر، ولكل منهما وقتٌ مُحدد، ثم يمضي، فقال:

ولا يحسبون الخير لا شر بعده

ولا يحسبون الشر ضرباً لازباً^(٤)

وعبر الشاعر الجاهلي عن ثنائية الخير والشر، من خلال رموز استقاها من بيئته، فقد رأى الجاهليون في بعض أنواع الطيور، ما يبعث الشؤم في حياتهم، وكانوا يتطيرون من رؤيتها؛ لأنهم يعتقدون أنها تجلب إليهم الشر وتذهب الخير، وفي مقدمة هذه الحيوانات الغراب، ((فقد كره العرب الغراب، ونفروا منه، وتشاءوا به، وليس في الأرض، بارح، ولا نطيح، ولا قعيد، وأعضب، ولا شيء مما يتشاءمون به، إلا والغراب عندهم أنكذ منه، وأشع خياراً، وأشنع أخباراً، لعل ذلك راجع إلى لونه، وإلى عمله، وإلى اسمه))^(٥)، وتشاء بعض الشعراء من الغراب؛ لأنهم يعتقدون أنه يُنذر بفراق الأحباب، كيف لا، واشتقت من اسمه، الغربة، والاعتراب^(٦)، في حين

(١) ديوان بشر بن أبي خازم: ١١٢.

(٢) التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط ٤، ١٩٨١م: ٩٠.

(٣) ديوان امرئ القيس: ١١٧.

(٤) الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى جباروك، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م: ١٨٧. المكتفر: السحاب المتوالي المتراكب، شب: فيها سواد وبياض، المشرفة: سيوف تنسب إلى قري اسمها مشارف دمشق في أرض العرب، الدخدار: الثوب المصون أعجمي معرب أصلها تحت دار، يلائن: يركن.

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٣٧.

(٦) ديوان شعر المتنب العبد، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧م: ٢١٢.

٢١٣.

(٧) كتاب العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: يوسف هبود، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م: ٢٣٩/٥.

(٨) ديوان النابغة الذبياني، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ذخائر العرب ٥٢، دار المعارف، ط ٣، ١٩٩٠م: ٤٨.

(٩) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، مطبعة الرسالة، مصر، د.ت: ١٢٠.

(١٠) ينظر: كتاب الحيوان: ٤٤٣.

الغراب؛ لأنهم يعتقدون أنه يُنذرُ بفراق الأحباب، كيف لا، واشتُقَّت من اسمِهِ، الغربةُ، والاعتِرابُ^(١)، في حين رأى أحدُ الباحثين سببَ تطيُّرِ الناسِ من الغراب، واليوم؛ لأنَّهم ((قرنوا الفراقَ والموتَ بالغراب، واليوم، نتيجةً لما تتَّسَمُ به هذه الحيوانات من أشكالٍ مُخيفة، وما تبعثُهُ من أصواتٍ قبيحة، تُثيرُ الشَّوْمَ في نفس الإنسان، علاوةً على ارتيادها الأماكنَ المهجورة، التي تبعثُ على الخوف، والفرع، والرَّهبة، كلُّ هذه الأسباب، جعلت النفوسَ، تنفرُ منها، وتقرنها بالشَّوْمَ، والشرَّ، وترى فيها رمزاً للفراق والموت))^(٢).

وهكذا اقتَرَنَ الشرُّ برؤية الغراب، ممَّا جعل ذلك الشاعرَ الزَّهيرَ يُخاطبُ الغرابَ، ويقرنه بالبين، ويجدُ في نعيِّهِ نذيرَ شَوْمٍ، غيرَ أنَّ الشاعرَ يُحاولُ أن يُخفِّفَ من وقع ذلك على نفسه، بعد أن يجدَ مخرجاً لذلك، بأنَّ الخيرَ والشرَّ لكلٍّ منهما وقتٌ وينقضي، وعلى الإنسان أن يدركَ هذه الحقيقة، وأن يُهيئَ نفسه لذلك، فقال:

يا غراب البين أسمعْت فقلَّ
إنَّ للخيرِ والشرِّ مدًى
كلُّ بؤسٍ ونعيمٍ زائلٌ
وإنَّ لذيْنِكَ وقتٌ وأجلٌ
وإنَّما تنطقُ شيئاً قد فعل
وبناتِ الدهرِ يلعبن بكُلَّ^(٣)

ويُرجعُ بعضُ الباحثين، خوفَ الإنسان الجاهلي، من الغراب، ونعته بغراب البين؛ ((ذلك لأنَّه ينتمي أصلاً إلى عالم السحر، لقد استُخدِمَ في عالم الكهانة... كما ظلَّ له باستمرار، ارتباطٌ بعالم السحر، في النسيب، كما اعتقد. وتطوَّرَ مفهومُهُ مؤخراً بالطبع، فأصبح مُجرَّدَ رمزٍ للباس))^(٤).

ويمكنُ أن نلمسَ مشاعرَ الخوف، والشَّوْمَ أكثرَ وضوحاً في شعر النابغة الذبياني، وهو الذي رأى في البوارح، والغراب، نذيرَ شَوْمٍ، برويتهما يقع الفراقُ بينه وبين الأحبة؛ لأنَّهما لا يسوقان إلا مثل هذه الأخبار الحزينة، فقال:

زَعَمَ الغرابُ بأنَّ رَحَلْتَنَا غداً
أزف الترحُّلُ غيرَ أنَّ ركبنا
لا مرحباً بَعْدَ، ولا أهلاً بِهِ
لَمَّا تَزَلْ بِرَحالِهَا وكانَ قَدْ
إن كانَ تفريقُ الأحبةِ في غَدٍ^(٥)

وذهبَ الشاعرُ عنترة إلى ما ذهبَ إليه النابغة، فرأى في الغراب وصوته، رمزاً للفراق بينه وبين حبيبته، وعيَّرَ عن خوفه منه، بأن رسمَ له صورةً تبعثُ الاشْمُزازَ، وكذلك عمل على منعه أن يُفرِّخَ، ويتكاثرَ، حتى يبقى وحيداً يندبُ حظَّه العائزَ، كما فعل بالشاعر، فتركه وحيداً يتلوَّى تحت أوجاع الفراق والسهر، فقال:

ظَعَنَ الذينَ فراقَهُمْ أَتَوْعُ
حَرَقَ الجَنَاحَ كأنَّ لحيي رأسه
فَزَجَرْتَهُ أَلَّا يُفَرِّخَ عُشَّهُ
إنَّ الذينَ نَعَبْتَ لِي بِفراقِهِمْ
وَجَرى بَيْنَهُمُ الغرابُ الأَبْقَعُ
جَلَمَانُ بالأخبارِ هَشَّ مَوْلَعُ
أَبداً وَيُصْبِحُ وَاحِداً يَتَفَجَّعُ
قد أسهروا ليلي التمامَ فأوجعوا^(٦)

واتَّخَذَ المُرْقَشُ الأكبرُ من صوت البوم، رمزاً للشرِّ، ومبعثاً للتشاوُمَ، بعدما سمع صوت البوم يتردَّدُ في الأطلال الدوارس، التي خلت من أهلها، فوجدَ في هذه الديار منزلاً، ضاق به ذرعاً، ولم يستطع المبيت فيه؛ لشدَّةِ خوفِهِ، وروعِهِ، وجاء بِصُورٍ جميلة، صوَّرَ فيها نفسه، وقد غلبت عليه هواجسُ الخوف، فتركته صامتاً، باهتاً، لا يدري ما يفعل، يتصوَّره الناظرُ إليه كأنَّه أنسٌ في المكان، مستمتعٌ به، فقال:

أَمِنَ آلِ أَسْماءِ الطَّلُولِ الدَّوَارِسُ
ذَكَرْتُ بِهَا أَسْماءَ لَوْ أَنَّ وَلِيَهَا
يُخَطِّطُ فِيهَا الطَّيْرُ، قَفَرَ بِسَابِسُ
قَرِيبٌ وَلَكِنْ حَبَسْتَنِي الحَوَابِسُ

إلى أن يقول:

وَتَسْمَعُ تَرْقَاءَ مِنَ البومِ حَوْلَنَا
كما ضربتُ بعدَ الهُدوءِ النَّواقِسُ^(٧)

الشباب والمشييب

(١) ينظر: كتاب الحيوان: ٤٤٣.

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت: ٣٢٠.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام، حقَّقها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦م: ٣/ ١٤٣.

(٤) جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم، ريناتا ياكوبي نموذجاً، د. عبد القادر الرباعي، دار جرير، ط١، دت: ١٤٦.

(٥) ديوان النابغة الذبياني: ٨٩.

(٦) أشعار الشعراء الستة الجاهليين: ١٤٣/ ٢.

(٧) ديوان المرقش، تحقيق: كارين صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م: ٥٥.

من ذكريات جميلة، وتحلُّ أيام المشيب، وما يفتُرُّ بها من ذبول الحياة، وأفولها، وإنَّ مثل هذه المشاعر تتركُّ في نفس الشاعر لوعةً، وحُزنًا، ومنهم زهير بن أبي سلمى، وهو يُعبِّرُ عن الخيبة التي ألمَّت به حين حلَّ به المشيب، ورحل عنه الشباب، وحُرم من لذَّاته، وقد عبَّرَ عن ذلك، بكنائيات، واستعارات، وتشبيهات؛ لأنَّ هذه الأساليب البلاغيَّة هي الكفيلةُ في ((إظهار ما يجولُ في نفس الإنسان، من عواطف وإحساسات، وخيالات وغيرها))^(١)، فقال زهير بن أبي سلمى:

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَغَرَّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاجِلُهُ
وَأَقْصَرَ عَمَّا تَعْلَمِينَ وَسُدَّدَتْ عَلَيَّ سَوَى قَصْدِ السَّبِيلِ مَعَادِلُهُ
وَقَالَ الْعَذَارَى: إِنَّمَا أَنْتَ عَمَّنَا وَكَانَ الشَّبَابُ كَالْخَلِيطِ نَرَائِلُهُ
فَأَضْبَحْنَ مَا يَعْرِفْنَ إِلَّا خَلِيقَتِي وَإِلَّا سَوَادَ الرَّأْسِ وَالشَّيْبُ شَامِلُهُ^(٢)

وهكذا أصيب زهير بما يُشعرُه بأنَّه أصبحَ هامشيًّا في هذه الحياة، وليس له سوى انتظار الموت، بعدما هجرته النساء، ولم يُعَدْنَ يكثرثنَ به، فحُرمَ من واحدةٍ من أهمِّ المُتَع في الحياة، وقد عبَّرَ عديُّ بن زيد، عن المشاعر نفسها، نحو الشيب، ولكن بأسلوبٍ آخر؛ إذ رأى في الشيب ضيقاً بغيضاً، ثَقِيلَ الظِّلِّ، يُعَكِّرُ حياةَ الإنسان، ويذهبُ كلَّ ما فيها من لذةٍ ونعيم، ليقبلها إلى همومٍ وآلام، وإنَّ هذا الشيب واقعٌ، ولا مفرَّ منه، فقال:

نَزَلَ الْمَشْيِبُ بَوْفِدِهِ لَا مَرْحَبًا وَرَأَى الشَّبَابَ مَكَانَهُ فَتَجَنَّبَا
ضَيْفٌ بَغِيضٌ لَا أَرَى لِي عُصْرَةَ مِنْهُ هَرَبْتُ فَلَمْ أَجِدْ لِي مَهْرَبَا
بُدِّلَتْ بِالْعَيْشِ النَّذِيرِ وَنِعْمَةِ الـ غُفْرَيْنِ هَمًّا شَاهِدًا، وَمُغْيَبًا^(٣)

وهذه الأبيات تُذكِّرُنَا بما قاله الشاعر عبد الرحمن شكري، حين وقف أمام المقبرة، ليُسجِّلَ خواطره، في تلك الليلة المُقَمَّرة؛ فقد رأى ضوءَ القمر يسطعُ على القبور، فبدى له هذا الضوء، كضوء البرق، الذي يبعثُ الرعبَ والخوفَ في نفس الإنسان، أو كيباض الشيب حين يظهر على الذوائب، فيبعثُ الخوفَ في الإنسان؛ لأنَّه يُذكِّرُه بالموت، فهنا أراد أن يقولَ أنَّ ضوءَ القمر جميلٌ، ولكنَّه حين يسطعُ على القبور، يبعثُ الحزنَ والخوفَ، وصحيحٌ أنَّه ضوءٌ ونورٌ، وبياضٌ، ولكن ليس كلُّ شيءٍ أبيضٌ تعشقه النفسُ، يبعثُ السرورَ، فالبرقُ أبيضٌ، لكنَّه يخطفُ الأبصارَ، ويبعثُ الرعبَ، والشيب أبيضٌ، غير أنَّه ثَقِيلٌ على النفس، ويُفْرِغُ الإنسانَ؛ لأنَّه رمزٌ للموت، فقال عبد الرحمن شكري:

إِنِّي رَأَيْتُ بِيَاضَ ضَوْئِكَ مَوْهِنًا فَوْقَ الْقُبُورِ كَعَارِضٍ يَتَهَلَّلُ
فَفَزَعْتُ مِنْ ذَاكَ الْبِيَاضِ كَأَنَّهُ لَوْنُ الْمَشْيِبِ عَلَى الذَّوَانِبِ يَثْقُلُ^(٤)

ونلمسُ مشاعرَ من نوع آخر يُظهرُها الشاعر الأعشى قلقًا يائسًا من حياته، ثمَّ مستسلمًا لما تُقرِّره الأقدار بحَقِّه، بعدما وجد نفسه عاجزًا عن مواجهة قدره، وغير قادرٍ على إصلاح ما أفسدَه الدهر، فقد وجد نفسه لعبةً بيدِ القدر يُسَيِّرُها كما شاء من الشباب إلى المشيب، ومن الغنى إلى الفقر، فقال:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرَمَدَا وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا
وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خَلَّةَ مَهْدَا
وَلَكِنْ أَرَى الدَّهْرَ الَّذِي هُوَ خَاتِرُ إِذَا أَضْلَحْتَ كَفَايَ عَادَ فَأَفْسَدَا
شَبَابٌ، وَشَيْبٌ، وَافْتِقَارٌ، وَثُرْوَةٌ فَلَيْلَهُ هَذَا الدَّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدَا^(٥)

وعلى العكس من هذه القصيدة، نجدُ الأعشى ((يرسمُ ملامحَ مواجهةٍ مأساةٍ الشيب، من خلال ضربٍ من التمرد، الراضٍ للاستسلام للواقع المفروض، والمتشيبُ بما كان من عنفوان الشباب وقوَّته))^(٦)، فقال:

وَأَرَى الْغَوَانِيَّ حِينَ شَبْتُ هَجَرَنَنِّي أَنْ لَا أَكُونُ لَهُنَّ مِثْلِي أَمْرَدَا
إِنَّ الْغَوَانِيَّ لَا يُوَاصِلُنَّ أَمْرًا فَقَدْ الشَّبَابَ وَقَدْ يَصِلُنَّ الْأَمْرَدَا
بَلْ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعُودُنَّ نَاشئًا مِثْلِي زَمَيْنَ أَحُلَّ بِرُقَّةٍ أَنْقَدَا^(٧)

(١) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣م: ١١٩.

(٢) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ١٠١-١٠٢.

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١١٣. العصرة: المنحة والملحأ.

(٤) ديوان لآلي الأنكار، عبد الرحمن شكري، مطبعة منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م: ١٤٥/٢.

(٥) ديوان الأعشى الكبير: ١٣٥.

(٦) دراسات نقدية في الأدب العرب: ٦٣.

(٧) ديوان الأعشى الكبير: ٢٢٧.

ونجد مثل هذه المشاعر، التي ترى في الشيب شبحاً يلاحق الإنسان، عند علقمة الفحل، وذلك في قصيدته الشهيرة:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَنِ طُرُوبٌ بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ^(١)
وَصَوَّرَ الشَّاعِرُ النَّمْرُ بْنُ تَوَلَبَ مَا يَفْعَلُهُ الْمَشِيبُ بِجَسَمِ الْإِنْسَانِ بِحَيْثُ أَنَّ الشَّاعِرَ أَنْكَرَ نَفْسَهُ، حِينَ رَأَى مَا
طَرَأَ عَلَى جَسَمِهِ مِنْ هُزَالٍ وَضَعْفٍ، فَقَالَ:
لَعَمْرِي لَقَدْ أَنْكَرْتُ نَفْسِي وَرَابِتِي مَعَ الشَّيْبِ أَبَدَالِي الَّتِي أَتَبَدَّلُ
فَضُولَ أَرَاهَا فِي أَدِيمِي بَعْدَمَا يَكُونُ كَفَافَ اللَّحْمِ، أَوْ هُوَ أَفْضَلُ^(٢)
وَعَاتَبَ النَّابِغَةُ الدِّبْيَانِي الْمَشِيبَ، وَهُوَ يُجَهِّزُ عَلَى أَيَّامِ الصَّبَا، وَيُحِيلُ أَيَّامَ الشَّاعِرِ أَرْضًا يَبَابًا لَا مَعْنَى لَهَا،
فَقَالَ:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ؟^(٣)
وَحَيْرٌ مِنْ عَبَّرَ عَنْ مَشَاعِرِهِ نَحْوَ الْمَشِيبِ، هُوَ الشَّاعِرُ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَشِيبَ عَلَامَةً مِنْ عِلَامَاتِ
أَفْوَلِ الْحَيَاةِ، وَوَجَدَ أَيَّامَ الشَّبَابِ الْجَمِيلَةَ تُطَوِّى بِسُرْعَةٍ، فَيَعْقِبُهَا الْمَشِيبُ، مِمَّا تَرَكَ ذَلِكَ لَوْعَةً فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ،
وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ:
وَأَرَى سَوَادَ الرَّأْسِ يَنْقُصُهُ الْبَلَى وَالشَّيْبُ عَنْ طَوِيلِ الْحَيَاةِ يَزِيدُ
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ لَوْ أَنَّهُ كَانَ الْبُكَاءُ بِهِ عَلَيَّ يَعُودُ
لَيْسَ الشَّبَابُ - وَإِنْ جَزَعْتَ - بِرَاجِعٍ ۖ أَبَدًا، وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْكَ مُعِيدُ^(٤)

الرومانسية وتجلياتها الفنية

الموضوعات:

في هذا الضرب من الموضوعات، نأى الشاعر الجاهلي، عن تلك الواقعية الصارخة في شعره؛ إذ انصبَّت اهتماماته، على تناول موضوعات، تُعنى بتصوير المشاعر، والعواطف، وما تضطرب فيه نفسه من مشاعر القلق، والخوف، وما جاش فيها من أحزان، وتشاؤم، ويأس، وهو يقطع رحلة الحياة المضنية، بما فيها من وحشة، وغربة، وما قاساه فيها، من متاعب ومُعاناة، فقد تأمل الشاعر الجاهلي هذه الحياة، وحاول أن يستقرى ماهيتها، ويعرف أسرارها، غير أنه نكص على عقبيه، ورجع يائساً، مستسلماً، لقدره، بعدما ظلت هذه الحياة يلفها الغموض، ولا يعرف من حقيقتها، إلا النزر القليل. تناول الشاعر الجاهلي موضوعات النفس الإنسانية، والحياة، والطبيعة، من خلال بعض الثنائيات، مثل ثنائية الحياة، والموت، التي شغلت رقة واسعة من شعر هؤلاء الشعراء، الذين حاولوا التعمق في موضوع الحياة والموت، وأن يدركوا أسرارها، لكن تأملاتهم لم تكن عميقة، بل كانت رؤى بسيطة، إذ أرجعوا كثيراً من هذه الظواهر، إلى أسباب غير حقيقية، فقد صبوا جام غضبهم على الدهر، والأيام والشهور، والقدر، ورأوا فيها سبباً لمعاناتهم، وهي التي جرعتهم كل المصائب في حياتهم، في حين أن الدهر أو الزمن، وعاء تقع فيه الأحداث، فهو لا يحزن، ولا يغدر، ولا يُميت، وإنما تقع فيه أحداث هي سبب لذلك، وإن لهذه الأحداث أسبابها الحقيقية التي يجب أن تُدرَك. أمَّا الثنائية الثانية التي استأثرت باهتمام الشاعر الجاهلي، فهي ثنائية الخير والشر، إذ وجد في اصطراع الخير والشر في حياته، ما يُعكر صفوها، لذلك عمل على التأمل في هذه الظاهرة، وحاول معرفة دواعي الخير والشر، غير أنه وقف عند حدودها الخارجية، ولم يأت بشيء جديد، فقد سلم بأن الخير والشر، يصطراعان في حياة الإنسان، ويعملان على قلبه، وعدم استقراره في الحياة، وما على الإنسان إلا أن يرضى بما تُقرره له الأقدار، يُزاد على ذلك ما عرِفَ بأن الخير والشر، لا يبقيان على حالة واحدة، ملازمة للإنسان، بل يتعاقبان عليه في حياته، وهما يُعدَّان سبباً في اضطرابه في الحياة. وحاول بعض الشعراء، أن يخلعوا شيئاً من مشاعرهم على الطبيعة، وأن يجدوا في بعض مظاهرها ما يدل على ما تزدهم به نفوسهم، من مشاعر وعواطف، فكانت عناصر الطبيعة رموزاً تُعبِّرُ عما يخطر في آدهانهم من مشاعر وعواطف وصاغ بعض الشعراء، تأملاتهم في الحياة والموت، وما بعد الموت، بأسلوب ذي نزعة قصصية، ساقوا فيها خلاصة ما توصّلوا إليه في أثناء رحلة الحياة، يُضاف على ما أمدّتهم فيه مُعتقداتهم الدينية، والثقافية التي كانت سائدة في عصرهم، بعدما أضفوا عليها شيئاً من خيالهم؛ لأن مثل هذه الموضوعات التي تُعنى بتصوير الأحاسيس، والمشاعر، موضوعات رومانسية، دار حولها الشعر الرومانسي الحديث، وهذا ما يؤكد أن مثل هذه الموضوعات، كان لها في الشعر الجاهلي ما يشبهها إلى حد ما، ونقر أن الشاعر الجاهلي تناول هذه الموضوعات بصورة تفقّر إلى العمق، الذي رأيناه عند شعراء الرومانسية في العصر الحديث، لكنها تُعدُّ بدايات رائدة في هذا الميدان.

(١) ديوان الأعشى الكبير: ٢٢٧ .

(٢) ديوان علقمة الفحل، حققه: لطفي الصقال، درة الخطيب، حلب: ٣٣ .

(٣) ديوان النمر بن تولى العجلي، جمع وشرح وتحقيق الدكتور محمد نبيل طريقي، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م: ٩٨ .

(٤) ديوان النابغة الذبياني: ٣٢ .

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٢٣ .

وأبرز ما يَستَمُّ به هذا الشعر الذي ينحو منحى الرومانسيَّة، هو لُغَتُهُ التي تَميلُ نحو الألفاظ المعنويَّة، التي تدلُّ على معاني العواطف، والمشاعر، والهواجس، علاوة على أنَّهم جاءوا بألفاظ تدلُّ على طبيعة الموضوعات التي عالجها هؤلاء الشعراء، فعندما تدورُ موضوعاتهم حول الطبيعة، فإنَّهم يأتونُ بألفاظ الطبيعة، لكنَّهم يختلِفون عن شعراء الوصف التقليدي، في كون هذه الكلمات، لا تقفُ عند حدود معناها الذي وُضِعَتْ له في معاجم اللغة، بل إنَّها تكتسبُ معاني جديدة، من خلال السياق، الذي وُظِّفَتْ فيه، وهذه المعاني تدلُّ على ما تختزنه نفسُ الشاعر، من مشاعرٍ وعواطفٍ أراد أن يبوحَ بها، وهذه تكادُ أن تكونَ سمةً للمعجم الرومانسي، غير أنَّ الكلمات لم تكن رومانسيَّةً بمُفرِّدها، وإنَّما في الصياغة، حيثُ تتحوَّلُ هذه الألفاظ إلى ألفاظ موحية، ومُحلقة في أجواء الخيال، قادرة على تصوير المشاعر والعواطف^(١)، وقد انتفع الشاعرُ الجاهليُّ، من كَمِّ هائلٍ من ألفاظ الطبيعة، مثل الليل، والنجم، والقمر، والشهاب، والوميض، والبرق، والسنا، والريح، والصبا، والدبور، والبحر، والموج، والماء، والورق، والغصن، والغراب، والبوارح، والبوم، والثرى، والأرض. هذه الألفاظ خلع عليها الشاعرُ الرومانسيُّ شيئاً من مشاعره، فوظفها لتعبيرٍ عن مشاعر الحزن، أو الكآبة، أو اليأس، أو الخوف، فضلاً على أنَّها رموزٌ تعبِّرُ عن الموت أو الفناء، أو الخير أو الشر، ويُمكننا أن نلمسَ ذلك في كثيرٍ من أشعارهم، ومنها قولُ كعب الذي رأى مأساة الإنسان تتمثلُ في الغصن والورق الذي يراه في عنفوان حيويَّته نضراً، ثمَّ بعد ذلك يسيرُ نحو الذبول والاصفرار، والفناء، وهو في هذه الحالة يشبه الإنسان الذي هو في عنفوان الشباب، لكن مع مرِّ الأيام والسنين يسيرُ نحو الكهولة والفناء، فقال:

والمِرءُ والمالُ يَتمى ثمَّ يذهِبُهُ مرُّ الدهورِ ويفنيه، فينسخُ

كالغصنِ بينا تراه ناعماً هديباً إذ هاجَ وانحطَّ عن أفنائه الورقُ^(٢)

وشاع في شعرهم الألفاظ التي تغنى بها هؤلاء الشعراء بعداباتهم، مثل: يَسْلُبُنِي، ويشهدني، ويتفجَّع، ويرميني، وقَاتِلِي، وموحشة، وحزين، وغدور، وخؤون، والموت، وختور، وكتيب، مثل قول عدي بن زيد:

فإن أمسيْتُ مكتئباً حزيباً كثيرَ الهمِّ يُشهدني الحذارُ^(٣)

وفي ضوء ما تقدَّم، يبدو لنا أنَّ لغة الشعر شديدة الارتباط، بموقف الشاعر، من الحياة، ورؤيته لها، ويكثرُ في شعر هؤلاء الألفاظ المُشعَّة، وهي ((التي تُثيرُ إلى جانب معناها المعروف، معاني جانبية يكونُ لها وقعٌ كبيرٌ، في نفس القارئ، منفردة أو مُتألِّفة مع الألفاظ الأخرى))^(٤)، ونجدُ لمثل هذه الألفاظ المُتألِّفة، صُوراً كثيرةً في شعر هؤلاء، وإنَّها توظفُ في ذهن قارئها وسامعها، كثيراً من المشاعر، والأخيلة، ومن هذه التعبيرات المُشعَّة: (لأمرٍ غيبٍ، وضيغٍ بغيبض، وليلة أرمداً، والسليم المُسهَّد، وأرعى النجوم، وأرعى سُدوله، وبنات الدهر، وأخنع الدهر بهم، والدر غول، ويُشهدني الحذارُ، ولياليها قصار،... إلخ).

الصورة الفنية:

أبدع عددٌ من الشعراء في العصر الجاهلي صُوراً شعريَّة تشبهُ إلى حدٍّ ما تلك الصُور التي دعا إليها شعراء الرومانسيَّة في العصر الحديث، إذ اشترطوا فيها أن تنقلَ مشاعرَ وأحاسيسَ، وأن تترك أثراً في نفوس مُتلقيها، وأن توظفُ في نفوسهم عواطفَ شتى، وهذا ما نادى به جماعة الديوان، الذين قالوا في التشبيه: ((وما ابتدغ التشبيه لرسم الأشكال والألوان، فإنَّ الناسَ جميعاً يرونَ الأشكالَ والألوانَ محسوسةً لذاتها، كما تراها، وإنَّما ابتدغ لنقل الشعور، واتِّساع مداه، ونفاذه إلى صميم الأشياء، يمتاز الشاعرُ على سواه))^(٥)، ويمكنُ أن نلمسَ ما قلناه في شعر عدي بن زيد، وهو يُشبهُ حياة الإنسان، كالشهاب يتوهجُ، ثمَّ ينطفئُ، فهذا التشبيه يُثيرُ في نفس قارئه مشاعر الخوف، من الحياة، وما تؤدي إليه من مصيرٍ مؤلمٍ، كذلك تبعثُ في نفس الإنسان روحَ الشفقة على حياته التي يُجهزُ عليها الموت، ويحرمها من لذة الحياة، ويجعلها نسياناً منسياً^(٦)، وهو تشبيه تمثيليٌّ يكونُ وجهُ الشبه منتزِعاً من أشياء متعدِّدة^(٧)، فقد شبَّه حياة الإنسان بلمعان الشهاب، فقال:

بأن المِرءَ لم يخلُقْ حديثاً ولا هَضْباً توقاه الوبارُ

ولكن كالشهابِ فثمَّ يخبو وحادي الموت عنه ما يحارُ^(٨)

ويوقظُ تشبيهه بشر بن أبي خازم، في نفس المتلقي، مشاعر الحزن، وهو يُشبهُ الشباب، الذي هو أجمل سنين العمر، عند الإنسان بسحاب الريح، ووجه الشبه هنا هو الذهاب وعدم الارتجاع، والتشبيه يُسمِّيهِ البلاغيون تشبيهاً مؤكداً مُفصلاً حذفت فيه الأداة، وذكر وجه الشبه^(٩):

(١) دبر الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي للمعاصر، د.حسن اطيمش، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م: ١٨ .

(٢) ديوان كعب بن زهير رواية الشَّكْرِي: ١٦٦ .

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٣٢ .

(٤) النقد اللغوي عند العرب، الدكتور نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م: ٢٣١ .

(٥) الديوان (في الأدب والنقد) لمؤلفه: عباس محمود العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، ط٣: ٢١ .

(٦) البلاغة فنونها وألفاظها: ٥٨ .

(٧) ديوان عدي بن زيد العبادي: ١٣٣ .

(٨) البلاغة فنونها وألفاظها: ٥٨ .

قليلًا والشباب سحاب ريج إذا ولّى، فليس له ارتجاع^(١)

وهذا التشبيه يُثير التأمل، ويترك مشاعر زاهرة بالألم واللوعة تُجسدُ خيبة أمل الإنسان في هذه الحياة. ويأتي امرؤ القيس، بتشبيه زاهر بالمشاعر المرعبة، مؤكّد مفصل، فقد شبّه فيه الدهر غولاً ختوراً، ووجه الشبه بينهما أن كليهما يلتهمان الرجال، وخُذِفَت منه الأداة، ودُكِّرَ فيه وجه الشبه، يُزاد على أنه جاء بمجاز عقليّ نسب إلى الدهر أفعالاً لم يعم بها؛ لأنّ الدهر زمنٌ، والزمن هو الوعاء، الذي تقع فيه الأحداث، فهو لم يلتهم الرجال، بل أن أحداثاً تقع فيه هي التي تقتل البشر، ونُسِبَت إليه؛ لأنها وقعت فيه، فقال:

ألم يخزنك أن الدهر غول ختور العهد يلتهم الرجال^(٢)

ونجد هذه الحقيقة التي أدركها الإنسان، وهي تعاقب الأيام عليه والسنين، وهو يعيش في هذه الحياة، تسوقه نحو مصيره المحزن، الذي كُتِبَ عليه، فكان لها أثر كبير على نفسه، لذلك نجد أن كثيراً من الشعراء، عبّروا عن مشاعرهم بصور متعدّدة، تصبّ جميعاً في الخشية من الزمن، ومنهم حاتم الطائي الذي شبّه الأيام والشهور والسنين التي يقضيها الإنسان في حياته بالمطايا التي تقلّ الإنسان نحو الهرم والشيخوخة والموت، فقال:

وما هي إلا ليلة، ثم يومها وحوّل إلى حوّل، وشهر إلى شهر

مطايًا يُقربن الصحيح إلى البلى ويُدنين أشلاء الهمام من القبر^(٣)

وإنّ مثل هذا التشبيه يبعث في نفس المتلقّي، الخوف، والرعب، وهو يُدرك أن الأيام تقوده نحو حتفه. ويسوق لنا كعب بن زهير، تشبيهاً تمثيليّاً، يُعبّر عن مشاعر حزينة، وهو يرى حال المرء، تشبّه الغصن، الذي يبدأ غضّاً، ناعماً، يزهر بطراوته، وخضرته، غير أن مرور الأيام، والأعوام، تُذهب هذه النضارة، وتسير به، نحو الذبول، والفناء، وإنّ هذا الضرب من التشبيه يترك في نفس المتلقّي، مشاعر الحزن والتشاؤم واليأس، وخبية الأمل من هذه الحياة، فقال:

والمرء والمال ينمى ثم يذهب كالغصن بينا تراه ناعماً هدياً

ورسم طرفه بن العبد، صورةً مخيفةً، للموت، فقد شبّه قدر الموت، بالحبل الذي شدّ أحد طرفيه، على رقبة الإنسان، والآخر ترك بيد الأقدار، بحيث أنها متى شاءت تجذب الحبل لتسوقه إلى حتفه، فقال:

لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى لمن يشأ يوماً يقذه لحتفه

وصور النابغة الذبياني، خوفه من النعمان بن المنذر، بهذه الصورة التشبيهية الجميلة، فقد صور سلطة النعمان وسطوته، بالليل الذي يطبق على الجميع، ولا مفرّ منه، وإن اعتقد الخائف منه، بأن الأرض واسعة ويمكن أن يكون أراجائها البعيدة، بمنأى من عقاب النعمان، إلا أن ذلك لم يسعفه، فإنه يدركه، كما يدرك الليل الجميع، فهو في قبضته، مهما حاول ذلك، فقال:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع^(٤)

فهذه الصورة التشبيهية، تبعث التأمل، وتترك في نفس قارئها، ((بما يحمل الليل من دلالات الغموض، والرهبة، وسرعة الانتشار، واستحالة أن تبقى بقعة من الأرض، دون أن يصل إليها الليل، وهذا يعني أن التشبيه يخضع كغيره من الصور البلاغية الأخرى إلى مقدرة الشاعر، على توظيفه، بما يخدم تجربته الشعرية))^(٥) ويشبّه عدي بن زيد، ما آلت له حال بني الأصفر ملوك الروم، وكذلك ملوك الفرس، بعد العزّ والجاه والسلطان، إلى ورق جفّ، ثم بعثرته رياح الصبا والدبور، وهذا التشبيه نقل لنا خيبة الإنسان في هذه الحياة، وضياح آماله ومأسائه، فقال:

ثم أضحوا كأنهم ورق جافّ، فألوث به الصبا والدبور^(٦)

ونجد مثل هذه التشبيهات، التي تترك انطباعاً نفسيّاً، في شعر امرؤ القيس، وهو يُفصّل عن حالته النفسية، وهو يشبه البرق الذي يبرق بين حين وآخر، بمشي البعير الذي يشكو من ألم في إحدى أرجله، ممّا

(١) البلاغة فتوحها وأفانها: ٥٨ .

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم: ١١٢ .

(٣) ديوان امرؤ القيس: ٣٠٩ .

(٤) ديوان حاتم الطائي: ١١٠ .

(٥) ديوان كعب بن زهير: ١٦٦ .

(٦) ديوان طرفه بن العبد: ٣٤ .

(٧) ديوان النابغة الذبياني: ٣٨ .

(٨) الصورة الشعرية في النقد العربي والإنجليزي دراسة مقارنة لمفاهيمها ومناهج دراستها في العصر الحديث، حيدر محمد غيلان، إصدارات وزارة الثقافة والساحة، صنعاء، ٢٠٠٤م: ٢٠ .

(٩) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٩٠ .

اضطره إلى المشي على ثلاث قوائم، فيكون مشيه بما يشبه الوثب، ثم يستريح، ثم يثب، والتشبيه هنا، يُعبر عن مُعانة نفسيّة، ويبدو ذلك في كلمة (أعني) فالبرق يبعث الخوف والرعب في نفس الشاعر، فيقول:

أعني على برق أراه وميض
يضيء حبياً في شمرايح بيض
ويهدأ تارات سناه وتارة
ينوء كتعاب الكسير المهيض^(١)

وتكثر في هذا اللون من الشعر، الاستعارات، والكنيات؛ لأنّ مثل هذه المشاعر، التي تُفعم بها نفوسهم، لا يمكن التعبير عنها بصورة مؤثرة، إلا من خلال الصور الشعريّة الموحية، والمُحلقة في أجواء الخيال، فهي الكفيلة في نقل أدقّ المشاعر التي يحس بها الشاعر.

وأجمل تلك الصور الاستعارية، الصورة التي رسمها امرؤ القيس، لليل ليُعبّر من خلالها عن همومه وأحزانه، فقد شبه الليل بالبعير، وحذف المُشبّه به وترك لازمة من لوازمه (التمطى بصلبه)، وهو يُعبّر عن طول الليل، ((وأردف أعجازاً وناء بكلّ من ثقل الهموم على نفسه، وكيف أنها انتشرت، وامتدت في كلّ زاوية نفسه في اطمئنان وهذوء))^(٢)، فقال:

وليل كموج البحر أرخى سُدولهُ
فقلت له لمّا تمطى بصلبه
ألا أيّها الليل الطويل ألا انجلي
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

ويرسم لنا الشاعر قيس بن الخطيم، صورة استعارية، تبعث انطباعاً حزيناً، في نفوسنا، وذلك في قوله:
ومن يك غافلاً لم يلق بؤساً
يُنخ يوماً بساحته القضاء^(٣)

فجعل القضاء والقدر، ببرك، ويجنّب بساحته، كما ببرك البعير، وهي استعارة مكنية، إذ حُذف المُشبّه به، وهو البعير، وثُرِكت لازمة من لوازمه^(٤)، وفيها ما يدلّ على الخوف، فالموت يُنوخ ويجنّب على الناس، كما يجنّب البعير بتقلبه، فيخنق الأنفاس، علاوة على أنها تدعو الإنسان إلى أن لا يغفل، أو يغترّ بالحياة، وإن كان مُنعماً، فإنّ هذا النعيم لا يشفع له عن الموت.

ومن الاستعارات التي تُعنى بتصوير المشاعر، وتوقظ مشاعر حزينّة في نفس مُتلقيها، قول زهير بن أبي سلمى:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطنة
وغرّي أفراس الصبا ورواحلة^(٥)

استطاع زهير أن يستودع في نفوسنا، شعوره بالمرارة، وخيبة الأمل، وهو يصحو على واقع جديد يجد نفسه ممّن لا تكثر به النساء، بعدما رمى به العمر من الشباب إلى المشيب، وقد عبّر عن ذلك، باستعارة جميلة (وغرّي أفراس الصبا ورواحلة)، والأفراس جمع فرس؛ الحيوان المعروف الذي توضع عليه الأرحال، وهي جمع رخل، والصبا والصبوات، ما يلهو به الإنسان من أيام شبابه... والإبداع في هذا المعنى الاستعاري في ضوء التركيب الشعري^(٦)، فقد جعل أفراس الصبا ورواحله تعري، وفرس غرّي ليس عليه سرّج، وهذا ما يُفقد زينتها التي تصبغ الفرس جميلةً بارتدائها، وهي صورة للشاعر، وهو يفقد زينتَه بفقد الشباب، ممّا جعل سلمى أقصرت عن حُبّه، أي كُفّت عن الحبّ وأشواقه، أو عدلت عن الهوى عندما ذهب الشباب، ورمّت به الأيام في عصر الشيخوخة والهرم، ولم يعد كما كان محط أنظار الفتيات الجميلات، ممّا ألمه ذلك وآذاه كثيراً.

وإنّ هذا اللون من الاستعارات يهدف إلى ((إظهار ما يجول في نفس الإنسان من عواطف، وإحساسات وخيالات وغيرها))^(٧)، إذ إنّ الصورة الاستعارية، كفيلة بأن تنقل أدقّ تلك المشاعر، وهذا ما وجدناه في معظم هذه الاستعارات، ومنها ما قاله الشاعر لبيد بن ربيعة العامري:

لما الله هذا الدهر، إني رأيتُهُ
بصيراً بما ساء ابن آدم مولعاً^(٨)

فقد جعل الدهر يبصر، ويدرك ما يفعل، فقد شبهه بالإنسان، وحذف المُشبّه به، وترك لازمة من لوازمه، وهي (الإبصار)، وجاء بمجاز عقليّ علاقته الزمانية، فقد نسب إلى الدهر ما لم يقدّم به، وهو الإساءة للإنسان، وبهذا أضفى حيوية على الدهر بحيث جعله يتحكّم في إيذاء الإنسان، وما على الإنسان أمام هذه القوة القاهرة، التي لا حول له نحوها، ولا قوة إلا أن يُعبّر عن مشاعر الانكسار، واليأس. ومثله قول زهير بن أبي سلمى يُعبّر عن

(١) ديوان امرؤ القيس: ٩٥.

(٢) التفسير النفسي للأدب: ٩٠.

(٣) ديوان امرؤ القيس: ١١٧.

(٤) ديوان قيس بن الخطيم: ٧١.

(٥) البلاغة فنونها وألفاظها: ١٧٩.

(٦) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ١٠١.

(٧) ينظر: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: ١١٩.

(٨) المصدر نفسه: ١١٩.

(٩) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٧٣.

مرارته في هذه الحياة، باستعارات جميلة، فالدهر يُقرعُ العظم، وهي استعارة تنقلُ مشاعر الألم المُضْمَمُ ممَّا يفعلهُ الدهر، وهو يقتنصُ أقرباءَ الشاعر الواحد تلو الآخر، وكذلك مجازٌ عقليٌ نسب للدهر ما لم يَقم به، وهو أن يفجع الشاعر بموتِ أعزائه، فقال:

يَا دَهْرُ قَدْ أَكْثَرْتَ فَجَعْتَنَا بِسَرَائِنَا، وَقَرَعْتَ فِي الْعِظَمِ^(١)

وكثرت الكنايات في شعرهم؛ لأنها تنفّق ومنهجهم الذي يشترط في الخيال أن يثير التأمل، وينقل المشاعر، ويوقظ العواطف، وإن الكنايات من شأنها أن تضطلع بهذه المهمة، ((فللكناية وظائف وفوائد لا تقوم بها الاستعارة ولا التشبيه؛ لأن لها نمطاً خاصاً وموطناً مختلفاً، فبدايتها واضحة، ثم تتصاعد في المعنى حتى تصبح عند المُتلقي العادي ألغازاً وأحاجي، وتستغرق رموزها ومعانيها إلى أن تُصبح ذات دلالات في الصفات، أو الموصوفين))^(٢)، وميزة الكناية هي ((أننا نستطيع أن نُعبّر بواسطتها عن كثير ممَّا يتحاشى التصريح به... ألا ترى أنك بأسلوب الكناية يُمكنك أن تشفي غلة نفسك))^(٣)، وقد تفنّن بعض الشعراء الجاهليين، في توظيف الكناية للتعبير عن مشاعر الحزن، من خلال بعض المُفارقات في الحياة، وما ينجم عنها من نهاية مؤلمة، فهذا عدي بن زيد، من أجل أن يكون لكلامه وقع مؤثّر، جعل الإنسان يُدرك حقيقة ما يحيق به من مخاطر، وأن لا يغترّ بالحياة مهما حنت عليه بقطوفها الدانية، وفي ذلك يقول: (يشربون الخمر بالماء الزلال)، ويريد به كناية عن الناس المُنعَمين، الذين هم أيضاً سيطالهم الموت، ويعصف بهم، وبنعيمهم، وبهذا يترك في نفس المُتلقي لوعةً وألماً، فقال:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ

عَمِرُوا دَهْرًا بَعِيثٍ حَسَنٍ أَمْنِي دَهْرَهُمْ غَيْرَ عِجَالٍ

ثُمَّ أَضْحُوا أَخْنَعَ الدَّهْرُ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يَوْدِي بِالْجَبَالِ^(٤)

ويأتي امرؤ القيس، بكنايات زاخرة بالمشاعر الحزينة واليائسة، في قوله:

أَرْجِي مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لَيْئاً وَلَمْ تَغْفَلْ عَنِ الصَّمِّ الْهَضَابِ

ويذكر هذا ما قاله الفيلسوف اليوناني (هرقليطس): ((أنت لا تنزل إلى النهر مرّتين)) لأن كل شيء في هذه الحياة، يطالهُ التغيير، ويمسهُ الفناء، ولم يبق شيء على حاله، فمتلما يولد الإنسان ويشب في هذه الحياة، ويصبح في عفتوانها، غير أنه بعد ذلك يهرم ويموت، وتشترك مع الإنسان كل الأشياء في الطبيعة بما فيها من الجبال وصخورها الصمّ، لم تسلماً ممَّا يفعلهُ بهما الدهر من أعمال التعرية، فتتخرأ وتتحوّل إلى أتربة مع مرّ الأزمان، والإدهور، وهذا ما أحزن امرؤ القيس، ونغص عليه عيشة، وهو يرى نفسه، فقوله: (سأنشب في شبا ظفر وناب) كناية عن الموت، ورسم للموت صورة مرعبة ومُخيفة تعبّر عن قلقه في الحياة، بقوله:

وَأَعْلَمُ أَنَّنِي عَمَّا قَلِيلٍ سَأَنْشَبُ فِي شَبَا ظْفَرٍ وَنَابٍ^(٥)

ووظّف كثير من الشعراء، الغراب الأبقع، أو الأسود، كناية عن تبيد الشمل بين الأهل، والأحبة، وكانوا يتشاءمون منه، بل يتطيرون به، ولا يطيقون رؤيته، فرويئة توجّج في نفوسهم مشاعر الخوف، والخشية، ممَّا تجلّبه هذه الرؤية، من شرّ، وفي ذلك قال الشاعر عنترة بن شدّاد:

ظَعَنَ الَّذِينَ فَرَّاقَهُمْ أَتَوْعُ وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغَرَابُ الْأَبْقَعُ^(٦)

فعبارة (وجرى بينهم الغراب الأبقع) كناية عن الفراق المؤكّد الوقوع؛ لأن رؤية الغراب تحتم وقوع الفراق. ومثله قول النابغة الذبياني، الذي أشرك مع الغراب، البوارخ، وهما ممَّا يتطيّر العربُ منهما شرّاً، (فرزعم البوارخ أن رحلتنا غداً) أي أن في غد تفريق الأحبة، وكذلك (خبرنا الغراب الأسود) كناية عن أن غداً فيه تفريق الأحبة، وما يُصاحب ذلك من هواجس الخوف، والحزن، فقال:

زَعَمَ الْغَرَابُ بَأَنَّ رَحَلْتَنَا غَدًا وَبِذَلِكَ خَبَرْنَا الْغَرَابَ الْأَسْوَدَ^(٧)

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الضُّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا زَاغِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ^(٨)

الخاتمة

إن خلاصة ما توصّل إليه البحث، يمكن إيجازهُ بالنقاط الآتية:

(١) شرح شعر زهير بن أبي سلمى: ٢٨٢ .

(٢) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق: ١٣٥ .

(٣) البلاغة فنوعاً وأتباعاً علم البيان والبدع: ٢٧٠ .

(٤) ديوان عدي بن زيد العبادي: ٨٢ - ٨٣ .

(٥) ديوان امرؤ القيس: ٩٨، أنشب: أعلق، وشبا: كل شيء حدّه .

(٦) أشعار الشعراء السنة الجاهليين: ١٤٣ / ٢ .

(٧) ديوان النابغة الذبياني: ٨٩ .

(٨) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٧٢ .

إنَّ ظهور هذه الأصول الرومانسيَّة في الشعر الجاهلي، يرجع إلى عوامل، منها ما يرجع إلى البيئة التي نشأ فيها هؤلاء الشعراء، وهي بيئة صحراوية مفتوحة الأفق، وتمتد مساحات شاسعة لم يدرك هؤلاء الشعراء أسرارها، ولا يعرفون ما تُخبئ لهم هذه المفازات الشاسعة لسكَّانها، فقد لُقِّها الغموض، وجعلهم يشعرون بالقلق والخوف، وهم يعيشون فيها من غير أن يعرفوا حقيقتها، فضلاً على أنَّها قليلة الموارد، شحيحة المياه، تضطرب بصراعات وحروب، جعلت الناس الذين يعيشون فيها لا يأمنون على أنفسهم، ولا على أموالهم، ممَّا زاد ذلك من كآبة نفوسهم وقناعتهم.

ونجم عن ذلك أنَّ الشاعر الجاهلي عني بمشاعره الذاتية نحو الحياة والموت، وحاول أن يعرف أسرارهما؛ من أجل أن يبعث الطمأنينة لنفسه في هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر التي لا تستقر على حال، فكانت ثنائية الحياة والموت، هي الموضوع الرئيس الذي دار حوله معظم شعرهم، غير أنَّ هذا الشعر كان ينفق إلى العمق، إذ توقَّف الشاعر عند حدود ظواهر الأمور، فأخذ يُعلِّل فيها ما تطرَّح نفسه من أسئلة وهواجس ومخاوف، بتعليقات بسيطة، فعزا الموت إلى الدهر، ورأى الزمن قاهراً للإنسان.

وتفرَّع عن هذا الموضوع الرئيس (الحياة والموت) موضوعات فرعية، منها الخلود، فحاول بعض الشعراء على شاكلة الرومانسيين، أن يدركوا سرَّ الخلود، غير أنَّهم رجعوا من تلك التأمُّلات بخيبة أمل، إذ رأوا في الخلود ضرباً من المستحيل، وما على الإنسان إلا أن يستسلم لإرادة الأقدار.

وكذلك دار شعرهم على ثنائية الخير والشر وهي من الموضوعات الفرعية التي لها علاقة مباشرة بموضوع الحياة والموت، فرأى الشاعر الجاهلي في اصطراع الخير والشر، ما يُنغص حياته ويكون سبباً في نكوصها وانحدارها نحو الموت، يُزاد على أنَّهم رأوا الشرَّ يُجسد لهم من خلال بعض الحيوانات التي يتطَّيرون منها مثل الغراب، واليوم، والطيور الأخرى، فهي تنزل الشرَّ بهم، من خلال تفريق الأهل والأحبة.

ومن الموضوعات الفرعية الأخرى التي أنبتت من الموضوع الرئيس الحياة والموت، ثنائية الشباب والشيب التي جسدت صراع الإنسان مع الزمن، إذ رأى الشاعر الجاهلي من الزمن سبباً رئيساً في مُعاناته في هذه الحياة، فالدهر خورٌ يرميه بكلَّ ما يُعكر صفو حياته، وإنَّ الأيَّام تسوق الإنسان نحو حتفه، علاوة على ما يعنيه الشباب كونه أحلى سنين العمر، بزواله تذهب أجمل ذكريات الإنسان، وتحلَّ محلها السنين التي تُشعر الإنسان بإخفاقه في الحياة نظَّم بعض الشعراء مشاعرهم نحو الحياة والموت، بقصائد طويلة ذات منحى قصصي، على شاكلة بعض الشعراء الرومانسيين في العصر الحديث، وقد وُفِّق بعضهم بتوظيف القصص التاريخي، لتعزيز ما ذهبوا إليه، بأنَّ الحياة فانية، وإنَّ الموت واقع ولا رادَّ له، ممَّا عزَّز مشاعر الحزن واليأس في هذه الحياة، وجاء بعضهم بصور شعريَّة تشبه الصور التي عبَّر من خلالها الشعراء الرومانسيون عن مشاعرهم، فقد خلَعوا شيئاً من مشاعرهم على الطبيعة، ورأوا في ظواهر الطبيعة، ما يُعبر عمَّا تجيش به نفوسهم من مشاعر نحو الحياة والموت والخلود، يُضاف على ما يُرافق ذلك من مشاعر الخوف والقلق واليأس. وعبر بعض الشعراء الجاهليين عن مشاعرهم، بالصور الشعريَّة التي تُعنى بنقل المشاعر، وتدعو للتأمل، وتترك في نفس المُتلقي انطباعاتاً مُعيَّنة، وهم في ذلك يشبهون الرومانسيين في العصر الحديث، فقد ابتعدوا عن التشبيهات الجسدية، وجاءوا بصور شعريَّة زاهرة بالمشاعر، وتدعو إلى التأمل، وتوقظ في نفس المُتلقي عواطف مُعيَّنة.

روافد البحث

- ١- الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره، د. سالم أحمد الحمداني، دفتاق مصطفى أحمد، دار الكتب، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٧م.
- ٢- أشعار الشعراء السبعة الجاهليين، الأعلام الشُّعري، دار الأفق الجديدة، بيروت.
- ٣- الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مطبعة الشعب، القاهرة، دت.
- ٤- أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، أحمد محمد الحوفي، مطبعة الرسالة، مصر، دت.
- ٥- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، تحقيق: بهجة عبد الغفور الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٥م.
- ٦- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣م.
- ٧- البلاغة فونها وأفنانها، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط١، الأردن.
- ٨- تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم، بيروت.
- ٩- التفسير النفسي للآدب، د. عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨١م.
- ١٠- جماعة الديوان، الدكتور يسري محمد سلامة، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٧م.
- ١١- جهود استشراقية معاصرة في قراءة الشعر العربي القديم، ريناتا ياكوبي نموذج، د. عبد القادر الرباعي، دار جرير، ط١، دت.
- ١٢- الحماسة البصرية، لطي بن أبي الفرج البصري (ت ٢٥٩هـ)، تحقيق: د. أحمد عبد المعيد خان، الهند، ١٩٦٤م.
- ١٣- حماسة الظرفاء من أشعار المحندين والقديماء، العيد لكاتي الزوزني (ت ٤٣١هـ)، تحقيق: محمد جبار المعيد، مطبعة دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م.
- ١٤- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، مصطفى جياووك، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م.
- ١٥- الحيوان، لأبي عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصر، دت.
- ١٦- دراسات نقدية في الأدب العربي، د. محمود عبد الله الجادر، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد.
- ١٧- دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، د. محسن طيماش، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م.
- ١٨- الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، دار النهضة للطبع والنشر، مصر، القاهرة.
- ١٩- الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣م.
- ٢٠- ديوان الأسود بن بغير، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، بغداد، ١٩٧٠م.
- ٢١- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، المطبعة النموذجية، مصر.
- ٢٢- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.
- ٢٣- ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: عزة حسن، دمشق، ١٩٧٢م.
- ٢٤- ديوان حاتم الطائي، شرح أبي صالح يحيى بن مزيك الطائي، قتم له وضع هوامشه وفهارسه، د. حنا نصر الجتي، دار الكتب العربي، بيروت.
- ٢٥- ديوان شعر المتعب العدي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.
- ٢٦- ديوان طرفة بن العبد، تقديم وشرح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي بجلب.
- ٢٧- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي بمصر، ١٩٧٥م.
- ٢٨- ديوان عدي بن زيد، تحقيق: محمد جبار المعيد، بغداد، ١٩٦٥م.
- ٢٩- ديوان علقمة الفحل، حققه: لطفي الصقال، درية الخطيب، حلب.
- ٣٠- الديوان (في الأدب والنقد) لمؤلفيه: عباس محمود العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، ط٣.
- ٣١- ديوان قيس بن الخطيم، حققه الدكتور إبراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢م.
- ٣٢- ديوان كعب بن زهير، رواية الشُّعري، شرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجمع، بيروت، ١٩٦٨م.
- ٣٣- ديوان لآلي الأفكار، عبد الرحمن شكري، مطبعة منشآت المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م.
- ٣٤- ديوان المرقش، تحقيق: كارين صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- ٣٥- ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه: د. واضح الصمد، ط١، دار صابر، بيروت، ١٩٩٨م.
- ٣٦- ديوان النابغة الذبياني، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ذخائر العرب ٥٢، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٠م.

- ديوان النمر بن تولب العكيلي، جمع وشرح وتحقيق الدكتور محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شليبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٦م.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له: د. إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢.
- شرح شعر زهير بن أبي سلمى، أبو العباس ثعلب، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط٣، مطبعة الغوثاني، دمشق، ٢٠٠٨م.
- شعر أبي زيد الطائي، جمعه وحققه الدكتور نوري حمودي القيسي، مساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٧م.
- شعر السموأل، تحقيق وشرح عيسى سبابا، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥١م.
- الشعر العربي في المهجر، د. إحسان عباس، محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.
- الصورة الشعرية في النقد العربي والإنجليزي دراسة مقارنة لمفاهيمها ومناهج دراستها في العصر الحديث، حيدر محمد غيلان، إصدارات وزارة الثقافة والساحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ط٢، ١٩٨٢م.
- الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت.
- عبد الرحمن شكري ناقدًا وشاعرًا، د. عبد الفتاح عبد المحسن الشطي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٩م.
- كتاب العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، تحقيق: يوسف هيود، شرك دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- الموت من منظور الذات قراءة في جدارية محمود درويش، د. عبد السلام المساوي، مجلة الفكر، العدد (٤)، المجلد (٣٥)، أبريل- يونيو ٢٠٠٧م.
- نصوص من الشعر الجاهلي قبل الإسلام دراسة وتحليل، د. نوري حمودي القيسي ود. محمود عبد الله الجادر ود. بهجت عبد الغفور الحديثي.
- النقد اللغوي عند العرب، الدكتور نعمة رحيم العزاوي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م.